(٨٩) سورة الفجر مكية وآياتها ثلاثون

سورة الفجر مكية ، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسية وهي : ١ - ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسل الله ، كقوم عاد ، وثمود ، وقوم فرعون ، وبيان ما حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب طغيانهم « ألم تركيف فعل ربك بعاد .. » الآيات ٢ - بيان سنة الله تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر ، والغنى والفقر ، وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه .. ﴾ الآيات . ٣ - الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وانقسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء ، وبيان مآل النفس الشريرة ، والنفس الكريمة الخيّرة ﴿ كلا إذا دُكَّت الأرض دكًّا دكاً . وجاء ربك والملك صفًّا صفاً . وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنىَّ له الذكرى .. ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة .

سورة الفجر

[١٠١١] أخرج ابن أبي حاتم عن بريدة في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾[١] قال: نزلت في عمر.

[١٠١٢] وأخرج من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي [ﷺ] قال: «**من يشتري بئر رومة يستعذب بها غفر الله له** فاشتراها عثمان فقال: **هل لك أن تجعلها سقاية للناس؟** قال: نعم» فأنزل الله في عثمان: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾[٢].

* * *

[١٠١١] (١) سورة الفجر: الآية (٢٧).

[١٠١٢] (٢) سورة الفجر: الآية (٢٧).

سورة الفجر

ثلاثون آية مكية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ۝ ﴾

اعلم أن هذه الأشياء التي أقسم الله تعالى بها لا بد وأن يكون فيها إما فائدة دينية - مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد - أو فائدة دنيوية توجب بعثًا على الشكر، أو مجموعهما، ولأجل ما ذكرناه اختلفوا في تفسير هذه الأشياء اختلافًا شديدًا، فكل أحد فسره بما رآه أعظم درجة في الدين وأكثر منفعة في الدنيا.

أما قوله: ﴿ وَٱلۡفَجۡرِ ﴾ فذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** ما روي عن ابن عباس أن الفجر هو الصبح المعروف، فهو انفجار الصبح الصادق والكاذب، أقسم الله تعالى به لما يحصل به من انقضاء الليل وظهور الضوء، وانتشار الناس وسائر الحيوانات من الطير والوحوش في طلب الأرزاق، وذلك مُشاكل لنشور الموتى من قبورهم، وفيه عبرة لمن تأمل، وهذا كقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤] وقال في موضع آخر: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] وتمدح في آية أخرى بكونه خالقًا له: فقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الإنعام: ٩٦] ومنهم من قال: المراد به جميع النهار إلا أنه دل بالابتداء على الجميع، نظيره: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١] وقوله: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ٢] **وثانيها:** أن المراد نفس صلاة الفجر، وإنما أقسم بصلاة الفجر لأنها صلاة في مفتتح النهار وتجتمع لها ملائكة النهار وملائكة الليل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨] أي تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار القراءة في صلاة الصبح. **وثالثها:** أنه فجر يوم معين، وعلى هذا القول ذكروا وجوهًا: **الأول:** أنه فجر يوم النحر، وذلك لأن أمر المناسك من خصائص ملة إبراهيم، وكانت العرب لا تدع الحج وهو يوم عظيم يأتي الإنسان فيه بالقربان، كأن الحاج يريد أن يتقرب بذبح نفسه، فلما عجز عن ذلك فدى نفسه بذلك القربان، كما قال تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٧] **الثاني:** أراد فجر ذي الحجة لأنه قرن به قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾ ولأنه أول شهر هذه العبادة المعظمة. **الثالث:** المراد فجر المحرم، أقسم به لأنه أول يوم من كل سنة، وعند ذلك يحدث أمورًا كثيرة مما يتكرر بالسنين كالحج والصوم والزكاة واستئناف الحساب بشهور الأهلة، وفي الخبر: «إن أعظم الشهور عند الله المحرم» وعن ابن عباس أنه قال: فجر السنة هو المحرم فجعل جملة المحرم فجرًا. **ورابعها:** أنه عنى بالفجر: العيون التي تنفجر منها المياه، وفيها حياة الخلق.

أما قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما جاءت منكرة من بين ما أقسم الله به لأنها ليالٍ مخصوصة بفضائل لا تحصل في غيرها، والتنكير دال على الفضيلة العظيمة.

المسألة الثانية: ذكروا فيه وجوهًا: **أحدها:** أنها عشر ذي الحجة لأنها أيام الاشتغال بهذا النسك في الجملة، وفي الخبر: «**ما من أيام العمل الصالح فيه أفضل من أيام العشر**» **وثانيها:** أنها عشر المحرم من أوله إلى آخره، وهو تنبيه على شرف تلك الأيام، وفيها يوم عاشوراء ولصومه من الفضل ما ورد به الأخبار. **وثالثها:** أنها العشر الأواخر من شهر رمضان، أقسم الله تعالى بها لشرفها وفيها ليلة القدر، إذ في الخبر «**اطْلُبُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ رَمَضَانَ**» وكان عليه الصلاة والسلام إذا دخل العشر الأخير من رمضان شد المئزر وأيقظ أهله، أي كف عن الجماع، وأمَر أهله بالتهجد.

وأما قوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: الشفع والوتر هو الذي تسميه العرب الخسا والزكا، والعامة تسميه الزوج والفرد، قال يونس: أهل العالية يقولون: الوَتر بالفتح في العدد والوِتر بالكسر في الذحل، وتميم تقول وِترٍ بالكسر فيهما معًا، وتقول أوترته أوتره إيتارًا، أي جعلته وترًا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنِ اسْتَجْمَرَ فَلْيُوتِرْ**»[1] والكسر قراءة الحسن والأعمش وابن عباس، والفتح قراءة أهل المدينة وهي لغة حجازية.

المسألة الثانية: اضطرب المفسرون في تفسير الشفع والوتر وأكثروا فيه، ونحن نرى ما هو الأقرب: **أحدها:** أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، وإنما أقسم الله بهما لشرفهما، أما يوم عرفة فهو الذي عليه يدور أمر الحج كما في الحديث: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**» وأما يوم النحر فيقع فيه القربان وأكثر أمور الحج من الطواف المفروض، والحلق والرمي، ويروى: «**يَوْمُ النَّحْرِ هُوَ يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ**» فلما اختص هذان اليومان بهذه الفضائل لا جرم أقسم الله بهما. **وثانيها:** أن أيام التشريق أيام بقية أعمال الحج فهي أيام شريفة، قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] والشفع هو يومان بعد يوم النحر، والوتر هو اليوم الثالث، ومن ذهب إلى هذا القول قال: حمل الشفع والوتر على هذا أَوْلى من حملهما على

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود في كتاب (الطهارة) باب (الاستنجاء في الخلاء) (١/ ١٠) حديث رقم (٣٥) من طريق عيسى بن يونس... به. وابن ماجه في كتاب (الطهارة) باب (الابتعاد للغائط) (١/ ١٢١) حديث رقم (٣٣٧) من طريق عبد الملك بن الصباح... به، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٧١)، والدارمي في كتاب (الطهارة) باب (التستر عند الحاجة) (١/ ١٥٨) حديث رقم (٦٦٢) جميعًا من طريق ثور بن يزيد... به وقال المنذري في (مختصر السنن) (١/ ٣٥): وفي إسناده أبو سعد الخير الحمصي وهو الذي رواه عن أبي هريرة، قال أبو زرعة الرازي: لا أعرفه (قلت): لقي أبا هريرة قال: على هذا يوضع، وعلته الحصين الحراني فهو مجهول كما في التقريب: وأورده الألباني في الضعيفة (١٠٢٨) البيهقي في (سننه الكبرى) (١/ ١٠٤) من طريق حصين الحراني عن أبي سعيد الخدري عن أبي هريرة... به.

العيد وعرفة من وجهين: **الأول:** أن العيد وعرفة دخلا في العشر، فوجب أن يكون المراد بالشفع والوتر غيرهما. **الثاني:** أن بعض أعمال الحج إنما يحصل في هذه الأيام، فحَمْل اللفظ على هذا يفيد القسم بجميع أيام أعمال المناسك. **وثالثها:** الوتر آدم شفع بزوجته، وفي رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر هو الله تعالى. **ورابعها:** الوتر ما كان وترًا من الصلوات كالمغرب والشفع ما كان شفعًا منها، روى عمران بن الحصين عن النبي ﷺ أنه قال: «هِيَ الصَّلَوَاتُ مِنْهَا شَفْعٌ وَمِنْهَا وَتْرٌ»(١) وإنما أقسم الله بها لأن الصلاة تالية للإيمان، ولا يخفى قدرها ومحلها من العبادات. **وخامسها:** الشفع هو الخلق كله لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] وقوله: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨] والوتر هو الله تعالى، وقال بعض المتكلمين: لا يصح أن يقال: الوتر هو الله لوجوه: **الأول:** أنا بينا أن قوله: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ تقديره ورب الشفع والوتر. فيجب أن يراد بالوتر المربوب فبطل ما قالوه. **الثاني:** أن الله تعالى لا يُذكر مع غيره على هذا الوجه بل يعظم ذكره حتى يتميز من غيره، وروي أنه عليه الصلاة والسلام سمع من يقول (الله ورسوله) فنهاه، وقال: «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ رَسُولُهُ» قالوا: وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِنَّ اللَّهَ وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ»(٢) ليس بمقطوع به. **وسادسها:** أن شيئًا من المخلوقات لا ينفك عن كونه شفعًا ووترًا، فكأنه يقال: أُقسم برب الفرد والزوج من خلقه، فدخل كل الخلق تحته، ونظيره قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] **وسابعها:** الشفع درجات الجنة وهي ثمانية، والوتر دركات النار وهي سبعة. **وثامنها:** الشفع صفات الخلق كالعلم والجهل والقدرة والعجز والإرادة والكراهية والحياة والموت، أما الوتر فهو صفة الحق وجود بلا عدم، حياة بلا موت، علم بلا جهل، قدرة بلا عجز، عز بلا ذل. **وتاسعها:** المراد بالشفع والوتر نفس العدد، فكأنه أقسم بالحساب الذي لا بد للخلق منه وهو بمنزلة الكتاب والبيان الذي مَنَّ الله به على العباد إذ قال: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤، ٥]، وقال: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]. وكذلك بالحساب يعرف مواقيت العبادات والأيام والشهور، قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥] وقال: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥] **وعاشرها:** قال مقاتل: الشفع هو الأيام والليالي، والوتر هو اليوم الذي لا ليل بعده وهو يوم القيامة. **الحادي عشر:** الشفع كل نبي له اسمان مثل محمد وأحمد والمسيح وعيسى ويونس وذي النون، والوتر كل نبي له اسم واحد مثل آدم ونوح وإبراهيم. **الثاني عشر:** الشفع آدم وحواء، والوتر مريم **الثالث عشر:** الشفع العيون الاثنتا عشرة، التي فجرها الله تعالى لموسى عليه السلام، والوتر الآيات التسع التي أوتي

---

(١) لم أجده.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٢/ ٢٧٧) من طريق أيوب... به، وفي (٢/ ٤٩٠/ ٤٩١) من طريق هشام... به والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (الحث على الوتر) (١/ ٤٠٩) حديث رقم (١٥٨٠) من طريق هشام... به، وابن خزيمة في (صحيحه) (٢) حديث رقم (١٠٧١) من طريق هشام... به، كلاهما (أيوب، وهشام) عن محمد بن سيرين... به.

موسى في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، **الرابع عشر**: الشفع أيام عاد، والوتر لياليهم لقوله تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] **الخامس عشر**: الشفع البروج الاثنا عشر لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١] والوتر الكواكب السبعة. **السادس عشر**: الشفع الشهر الذي يتم ثلاثين يومًا، والوتر الشهر الذي يتم تسعة وعشرين يومًا. **السابع عشر**: الشفع الأعضاء، والوتر القلب، قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤]، **الثامن عشر**: الشفع الشفتان، والوتر اللسان، قال تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٩] **التاسع عشر**: الشفع السجدتان، والوتر الركوع. **العشرون**: الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية، والوتر أبواب النار لأنها سبعة. واعلم أن الذي يدل عليه الظاهر أن الشفع والوتر أمران شريفان، أقسم الله تعالى بهما، وكل هذه الوجوه التي ذكرناها محتمل، والظاهر لا إشعار له بشيء من هذه الأشياء على التعيين، فإن ثبت في شيء منها خبر عن رسول الله ﷺ أو إجماع من أهل التأويل حُكم بأنه هو المراد، وإن لم يثبت فيجب أن يكون الكلام على طريقة الجواز لا على وجه القطع، ولقائل أن يقول أيضًا: إني أحمل الكلام على الكل لأن الألف واللام في الشفع والوتر تفيد العموم.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ إذا يمضي، كما قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] وسراها مضيها وانقضاؤها، أو يقال: سراها هو السير فيها، وقال قتادة: ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ أي إذا جاء وأقبل.

المسألة الثانية: أكثر المفسرين على أنه ليس المراد منه ليلة مخصوصة بل العموم، بدليل قوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ ولأن نعمة الله بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرهما على الخلق - عظيمة، فصَحَّ أن يقسم به لأن فيه تنبيهًا على أن تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم عالم بجميع المعلومات، وقال مقاتل: هي ليلة المزدلفة، فقوله: ﴿إِذَا يَسْرِ﴾ أي إذا يُسار فيه، كما يقال: (ليل نائم) لوقوع النوم فيه، و(ليل ساهر) لوقوع السهر فيه، وهي ليلة يقع السُّرى في أولها عند الدفع من عرفات إلى المزدلفة، وفي آخرها كما روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقدم ضعفة أهله في هذه الليل، وإنما يجوز ذلك عند الشافعي رحمه الله بعد نصف الليل.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: قرئ (إذا يَسْرِي) بإثبات الياء، ثم قال: وحذفها أحب إليَّ لأنها فاصلة والفواصل تحذف منها الياءات، ويدل عليها الكسرات. قال الفراء: والعرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسرة ما قبلها، وأنشد:

كَفَّاكَ كَفٌّ مَا يُبْقِي دِرْهَمَا ... جُودًا وَأُخْرَى تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدَّمَا

فإذا جاز هذا في غير الفاصلة فهو في الفاصلة أَوْلى، فإن قيل: لِمَ كان الاختيار أن تحذف

الياء إذا كان في فاصلة أو قافية، والحرف من نفس الكلمة، فوجب أن يثبت كما أثبت سائر الحروف ولم يحذف؟ أجاب أبو علي فقال: القول في ذلك أن الفواصل والقوافي موضع وقف والوقف موضع تغيير، فلما كان الوقف تغير فيه الحروف الصحيحة بالتضعيف والإسكان وروم الحركة فيها، غُيرت هذه الحروف المشابهة للزيادة بالحذف، وأما من أثبت الياء في (يسري) في الوصل والوقف فإنه يقول: الفعل لا يحذف منه في الوقف كما يحذف في الأسماء، نحو قاضٍ وغازٍ، تقول: هو يقضي وأنا أقضي، فتثبت الياء ولا تحذف.

وقوله تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ فيه مسألتان:

المسألة الأولى: الحجر: العقل، سمي به لأنه يمنع عن الوقوع فيما لا ينبغي، كما سمي عقلاً ونُهية لأنه يعقل ويمنع، وحصاة من الإحصاء وهو الضبط، قال الفراء: والعرب تقول: إنه لذو حِجر، إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها، كأنه أُخذ من قولهم: حجرت على الرجل، وعلى هذا سمي العقل حجرًا لأنه يمنع من القبيح، من الحجر وهو المنع من الشيء بالتضييق فيه.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ ﴾ استفهام، والمراد منه التأكيد، كمن ذكر حجة باهرة ثم قال: هل فيما ذكرته حجة؟ والمعنى أن من كان ذا لب علم أن ما أقسم الله تعالى به من هذه الأشياء فيه عجائب ودلائل على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بأن يقسم به لدلالته على خالقه. قال القاضي: وهذه الآية تدل على ما قلنا، أن القسم واقع برب هذه الأمور لأن هذه الآية دالة على أن هذا مبالغة في القسم، ومعلوم أن المبالغة في القسم لا تحصل إلا في القسم بالله، ولأن النهي قد ورد بأن يحلف العاقل بهذه الأمور.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾

واعلم أن في جواب القسم وجهين: **الأول**: أن جواب القسم هو قوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ وما بين الموضعين معترض بينهما. **الثاني**: قال صاحب (الكشاف): المقسم عليه محذوف وهو لنعذبن الكافرين، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ وهذا أَوْلى من الوجه الأول لأنه لما لم يتعين المقسم عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين دل على أن المقسم عليه أولاً هو ذلك.

أما قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: ألم تر: ألم تعلم لأن ذلك مما لا يصح أن يراه الرسول، وإنما أطلق لفظ

الرؤية ههنا على العلم، وذلك لأن أخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة بالتواتر، أما عاد وثمود فقد كانا في بلاد العرب، وأما فرعون فقد كانوا يسمعونه من أهل الكتاب، وبلاد فرعون أيضًا متصلة بأرض العرب، وخبر التواتر يفيد العلم الضروري، والعلم الضروري جار مجرى الرؤية في القوة والجلاء والبعد عن الشبهة، فلذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى ألم تعلم؟

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وإن كان في الظاهر خطابًا للنبي ﷺ لكنه عام لكل من علم ذلك. والمقصود من ذكر الله تعالى حكايتهم أن يكون زجرًا للكفار عن الإقامة على مثل ما أدى إلى هلاك عاد وثمود وفرعون وقومه، وليكون بعثًا للمؤمنين على الثبات على الإيمان.

أما قوله تعالى: ﴿بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾، **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: أنه تعالى ذكر ههنا قصة ثلاث فرق من الكفار المتقدمين وهي عاد وثمود وقوم فرعون على سبيل الإجمال حيث قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ولم يبين كيفية ذلك العذاب، وذكر في سورة الحاقة بيان ما أبهم في هذه السورة فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ [الحاقة: ٥-٦] إلى قوله: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٩] الآية.

المسألة الثانية: عاد هو عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح، ثم إنهم جعلوا لفظة عاد اسمًا للقبيلة، كما يقال لبني هاشم هاشم ولبني تميم تميم، ثم قالوا للمتقدمين من هذه القبيلة: عاد الأولى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠] وللمتأخرين عاد الأخيرة.

وأما إرم فهو اسم لجد عاد، وفي المراد منه في هذه الآية أقوال: **أحدها:** أن المتقدمين من قبيلة عاد كانوا يسمون بعاد الأولى فلذلك يسمون بإرم تسمية لهم باسم جدهم. **والثاني:** أن إرم اسم لبلدتهم التي كانوا فيها، ثم قيل: تلك المدينة هي الإسكندرية وقيل دمشق. **والثالث:** أن إرم أعلام قوم عاد كانوا يبنونها على هيئة المنارة وعلى هيئة القبور، قال أبو الدقيش: الأروم قبور عاد. وأنشد:

بِـهَـا أُرُومٌ كَـهَـوَادِي الْـبُـخْـتِ

ومن الناس من طعن في قول من قال: إن إرم هي الإسكندرية أو دمشق، قال: لأن منازل عاد كانت بين عمان إلى حضرموت وهي بلاد الرمال والأحقاف، كما قال: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] وأما الإسكندرية ودمشق فليستا من بلاد الرمال.

المسألة الثالثة: إرم لا تنصرف قبيلة كانت أو أرضًا للتعريف والتأنيث.

المسألة الرابعة: في قوله: ﴿إِرَمَ﴾ وجهان وذلك لأنا إن جعلناه اسم القبيلة كان قوله: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لعاد وإيذانًا بأنهم عاد الأولى القديمة، وإن جعلناه اسم البلدة أو الأعلام كان التقدير بعاد أهل إرم، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، كما في قوله: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] ويدل عليه قراءة ابن الزبير: (بعاد إرم) على الإضافة.

المسألة الخامسة: قرأ الحسن: (بعاد إرم) مفتوحين وقرئ: (بعاد إرم) بسكون الراء على التخفيف كما قرئ: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ [الكهف: ١٩] وقرئ: (بعاد إرم ذات العماد) بإضافة ﴿إِرَمَ﴾ إلى ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ وقرئ: (بعاد إرم ذات العماد) بدلاً من (فَعَل ربك) والتقدير: ألم تر كيف فعل ربك بعاد جعل ذات العماد رميمًا.

أما قوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾، ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في إعرابه وجهان، وذلك لأنا إن جعلنا: ﴿إِرَمَ﴾ اسم القبيلة فالمعنى أنهم كانوا بدويين يسكنون الأخبية والخيام والخباء لا بد فيها من العماد، والعماد بمعنى العمود. وقد يكون جمع العمد أو يكون المراد بذات العماد أنهم طوال الأجسام على تشبيه قدودهم بالأعمدة، وقيل: ذات البناء الرفيع، وإن جعلناه اسم البلد فالمعنى أنها ذات أساطين أي ذات أبنية مرفوعة على العمد، وكانوا يعالجون الأعمدة فينصبونها ويبنون فوقها القصور، قال تعالى في وصفهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨] أي علامة وبناء رفيعًا.

المسألة الثانية: روي أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد، فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فملك الدنيا ودانت له ملوكها، فسمع بذكر الجنة فقال: أبني مثلها!! فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وهي مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار، فلما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا. وعن عبد الله بن قلابة أنه خرج في طلب إبل له فوصل إلى جنة شداد، فحمل ما قدر عليه مما كان هناك، وبلغ خبره معاوية فاستحضره وقص عليه، فبعث إلى كعب فسأله، فقال: هي إرم ذات العماد، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك، أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال، يخرج في طلب إبل له، ثم التفت فأبصر ابن (أبي) قلابة فقال: هذا والله هو ذلك الرجل!!

أما قوله: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ فالضمير في (مثلِهَا) إلى ماذا يعود؟ فيه وجوه: **الأول:** ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ أي مثل عاد في البلاد في عظم الجثة وشدة القوة، كان طول الرجل منهم أربعمائة ذراع، وكان يحمل الصخرة العظيمة فيلقيها على الجمع فيهلكوا. **الثاني:** لم يخلق مثل مدينة شداد في جميع بلاد الدنيا. وقرأ ابن الزبير (لم يخلق مثلها) أي لم يخلق الله مثلها. **الثالث:** أن الكناية عائدة إلى العماد، أي لم يخلق مثل تلك الأساطين في البلاد، وعلى هذا فالعماد جمع عمد، والمقصود من هذه الحكاية زجر الكفار فإنه تعالى بيَّن أنه أهلكهم بما كفروا وكذبوا الرسل، مع الذي اختصوا به من هذه الوجوه، فلأن تكونوا خائفين من مثل ذلك أيها الكفار إذا أقمتم على كفركم مع ضعفكم كان أَوْلى.

أما قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ فقال الليث: الجواب قطعُك الشيء كما يجاب

الجيب، يقال: جاب يجوب جوبًا. وزاد الفراء: يجيب جيبًا. ويقال: جبت البلاد جوبًا، أي جلت فيها وقطعتها، قال ابن عباس: كانوا يجوبون البلاد فيجعلون منها بيوتًا وأحواضًا وما أرادوا من الأبنية، كما قال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[الشعراء: ١٤٩] قيل: أول من نحت الجبال والصخور والرخام ثمود، وبنوا ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، وقوله: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ قال مقاتل: بوادي القرى.

وأما قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ فالاستقصاء فيه مذكور في سورة ص، ونقول الآن: فيه وجوه: **أحدها:** أنه سمي ذا الأوتاد لكثرة جنوده ومضاربهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا. **وثانيها:** أنه كان يعذب الناس ويشدهم بها إلى أن يموتوا، روي عن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد وجعل على صدرها رحا واستقبل بها عين الشمس، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١]، ففرج الله عن بيتها في الجنة فرأته[1] **وثالثها:** ذي الأوتاد، أي ذي الملك والرجال، كما قال الشاعر:

فِـي ظِـلِّ مَـلِـكٍ رَاسِـخِ الْأَوْتَـادِ

ورابعها: روى قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن تلك الأوتاد كانت ملاعب يلعبون تحتها لأجله. واعلم أن الكلام محتمل لكل ذلك، فبين الله تعالى لرسوله أن كل ذلك مما تعظم به الشدة والقوة والكثرة لم يمنع من ورود هلاك عظيم بهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: يحتمل أنه يرجع الضمير إلى فرعون خاصة لأنه يليه، ويحتمل أن يرجع إلى جميع من تقدم ذكرهم، وهذا هو الأقرب.

المسألة الثانية: أحسن الوجوه في إعرابه أن يكون في محل النصب على الذم، ويجوز أن يكون مرفوعًا على (الإخبار، أي) هم الذين طغوا، أو مجرورًا على وصف المذكورين عاد وثمود وفرعون.

المسألة الثالثة: ﴿طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ أي عملوا المعاصي وتجبروا على أنبياء الله والمؤمنين، ثم فسر طغيانهم بقوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ ضد الصلاح، فكما أن الصلاح يتناول جميع أقسام البر، فالفساد يتناول جميع أقسام الإثم، فمن عمل بغير أمر الله وحَكَم في عباده بالظلم فهو مفسد.

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم في (المستدرك) (٢/ ٥٦٨) حديث رقم (٣٩٢٩) من طريق معمر عن ثابت البناني عن أبي رافع عن عبد الله بن مسعود... به وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٤٤) حديث رقم (١٦٣٨) والطبري في (تفسيره) (٢٤/ ٤٠٩) وعبد الرزاق في (تفسيره) (٨/ ١٠١) حديث رقم (٣٥٠٧) جميعًا من طريق معمر عن ثابت البناني عن أبي رافع... فذكره، وأورده الألباني في (الصحيحة) (٢٥٠٨) وقال: صحيح.

ثم قال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ واعلم أنه يقال: صب عليه السوط وغشاه وقنعه، وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم في الآخرة - كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به. قال القاضي: وشبهه بصب السوط الذي يتواتر على المضروب فيهلكه، وكان الحسن إذا قرأ هذه الآية قال: إن عند الله أسواطًا كثيرة فأخذهم بسوط منها. فإن قيل: أليس أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[فاطر: ٤٥] يقتضي تأخير العذاب إلى الآخرة، فكيف الجمع بين هاتين الآيتين؟ قلنا: هذه الآية تقتضي تأخير تمام الجزاء إلى الآخرة، والواقع في الدنيا شيء من ذلك ومقدمة من مقدماته.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ تقدم عند قوله: ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾[النبأ: ٢١] ونقول: المرصاد المكان الذي يترقب فيه الراصد، مفعال من رصده، كالميقات من وقته، وهذا مثل لإرصاده العصاة بالعقاب وأنهم لا يفوتونه، وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد، وللمفسرين فيه وجوه: **أحدها:** قال الحسن: يرصد أعمال بني آدم. **وثانيها:** قال الفراء: إليه المصير. وهذان الوجهان عامان للمؤمنين والكافرين، ومن المفسرين من يخص هذه الآية إما بوعيد الكفار أو بوعيد العصاة، أما الأول فقال الزجاج: يرصد من كفر به وعدل عن طاعته بالعذاب. وأما الثاني فقال الضحاك: يرصد لأهل الظلم والمعصية. وهذه الوجوه متقاربة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤] كأنه قيل: إنه تعالى لبالمرصاد في الآخرة، فلا يريد إلا السعي للآخرة، فأما الإنسان فإنه لا يهمه إلا الدنيا ولذاتها وشهواتها، فإن وجد الراحة في الدنيا يقول: ربي أكرمني، وإن لم يجد هذه الراحة يقول: ربي أهانني. ونظيره قوله تعالى في صفة الكفار: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[الروم: ٧] وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾[الحج: ١١]. وهذا خطأ من وجوه: **أحدها:** أن سعادة الدنيا وشقاوتها في مقابلة ما في الآخرة من السعادة والشقاوة كالقطرة في البحر، فالمتنعم في الدنيا لو كان شقيًّا في الآخرة فذاك التنعم ليس بسعادة، والمتألم المحتاج في الدنيا لو كان سعيدًا في الآخرة فذاك ليس بإهانة ولا شقاوة، إذ المتنعم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالسعادة والكرامة، والمتألم في الدنيا لا يجوز له أن يحكم على نفسه بالشقاوة والهوان. **وثانيها:** أن حصول النعمة في الدنيا وحصول الآلام في الدنيا لا يدل على الاستحقاق، فإنه تعالى كثيرًا ما يوسع على العصاة والكفرة، إما لأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وإما بحكم المصلحة، وإما على سبيل

الاستدراج والمكر، وقد يضيق على الصِّديقين لأضداد ما ذكرنا، فلا ينبغي للعبد أن يظن أن ذلك لمجازاة. **وثالثها:** أن المتنعم لا ينبغي أن يغفل عن العاقبة، فالأمور بخواتيمها، والفقير والمحتاج لا ينبغي أن يغفل عما لله عليه من النعم التي لا حد لها من سلامة البدن والعقل والدين ودفع الآفات والآلام التي لا حد لها ولا حصر، فلا ينبغي أن يقضي على نفسه بالإهانة مطلقًا. **ورابعها:** أن النفس قد ألفت هذه المحسوسات، فمتى حصلت هذه المشتهيات واللذات صعب عليها الانقطاع عنها وعدم الاستغراق فيها، أما إذا لم يحصل للإنسان شيء من هذه المحسوسات رجعت شاءت أم أبت إلى الله، واشتغلت بعبودية الله، فكان وجدان الدنيا سببًا للحرمان من الله، فكيف يجوز القضاء بالشقاوة والإهانة عند عدم الدنيا، مع أن ذلك أعظم الوسائل إلى أعظم السعادات؟! **وخامسها:** أن كثرة الممارسة سبب لتأكد المحبة، وتأكد المحبة سبب لتأكد الألم عند الفراق، فكل من كان وجدانه للدنيا أكثر وأدوم كانت محبته لها أشد، فكان تألمه بمفارقتها عند الموت أشد، والذي بالضد فبالضد، فإذن حصول لذات الدنيا سبب للألم الشديد بعد الموت، وعدم حصولها سبب للسعادة الشديدة بعد الموت، فكيف يقال: إن وجدان الدنيا سعادة وفقدانها شقاوة؟!

واعلم أن هذه الوجوه إنما تصح مع القول بإثبات البعث روحانيًا كان أو جسمانيًا، فأما من ينكر البعث من جميع الوجوه فلا يستقيم على قوله شيء من هذه الوجوه، بل يلزمه القطع بأن وجدان الدنيا هو السعادة وفقدانها هو الشقاوة، ولكن فيه دقيقة أخرى وهي أنه ربما كان وجدان الدنيا الكثيرة سببًا للقتل والنهب والوقوع في أنواع العذاب، فربما كان الحرمان سببًا لبقاء السلامة، فعلى هذا التقدير لا يجوز أيضًا لمنكر البعث من جميع الوجوه أن يقضي على صاحب الدنيا بالسعادة وعلى فاقدها بالهوان، فربما ينكشف له أن الحال بعد ذلك بالضد، **وفي الآية سؤالات:**

السؤال الأول: قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المراد منه شخص معين أو الجنس؟ **الجواب:** فيه قولان: **الأول:** أن المراد منه شخص معين، فروي عن ابن عباس أنه عتبة بن ربيعة، وأبو حذيفة بن المغيرة. وقال الكلبي: هو أُبي بن خلف. وقال مقاتل: نزلت في أمية بن خلف **والقول الثاني:** أن المراد من كان موصوفًا بهذا الوصف وهو الكافر الجاحد ليوم الجزاء.

السؤال الثاني: كيف سمي بسط الرزق وتقديره ابتلاء؟ **الجواب:** لأن كل واحد منهما اختبار للعبد، فإذا بسط له فقد اختبر حاله أيشكر أم يكفر، وإذا قدر عليه فقد اختبر حاله أيصبر أم يجزع، فالحكمة فيهما واحدة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

السؤال الثالث: لما قال: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ فقد صحح أنه أكرمه. وأثبت ذلك ثم إنه لما حكى عنه أنه قال: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ذمه عليه، فكيف الجمع بينهما؟ **والجواب:** لأن كلمة الإنكار هي قوله: ﴿كَلَّا﴾ فلمَ لا يجوز أن يقال: إنها مختصة بقوله: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ سلّمنا أن الإنكار عائد إليهما معًا

ولكن فيه وجوه ثلاثة: أحدها: أنه اعتقد حصول الاستحقاق في ذلك الإكرام. الثاني: أن نعم الله تعالى كانت حاصلة قبل وجدان المال، وهي نعمة سلامة البدن والعقل والدين، فلما لم يعترف بالنعمة إلا عند وجدان المال، علمنا أنه ليس غرضه من ذلك شكر نعمة الله، بل التصلف بالدنيا والتكثر بالأموال والأولاد. الثالث: أن تصلفه بنعمة الدنيا وإعراضه عن ذكر نعمة الآخرة يدل على كونه منكرًا للبعث، فلا جرم استحق الذم، على ما حكى الله تعالى ذلك فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ إلى قوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٧].

السؤال الرابع: لم قال في القسم الأول: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ﴾ وفي القسم الثاني: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ فذكر الأول بالفاء والثاني بالواو؟ **والجواب:** لأن رحمة الله سابقة على غضبه وابتلاءه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام، فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم وقبله الثاني على ما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

السؤال الخامس: لما قال في القسم الأول: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ يجب أن يقول في القسم الثاني: فأهانه فيقول: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ لكنه لم يقل ذلك. **والجواب:** لأنه في قوله: ﴿أَكْرَمَنِ﴾ صادق وفي قوله: ﴿أَهَٰنَنِ﴾ غير صادق، فهو ظن قلة الدنيا وتقتيرها إهانة، وهذا جهل واعتقاد فاسد، فكيف يحكي الله سبحانه ذلك عنه؟!

السؤال السادس: ما معنى قوله: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ **الجواب:** ضَيَّق عليه بأن جعله على مقدار البلغة، وقرئ (فقدر) على التخفيف وبالتشديد، أي قتر، وأكرمن وأهانن بسكون النون في الوقف فيمن ترك الياء في الدرج مكتفيًا منها بالكسرة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الشبهة قال: ﴿كَلَّا﴾ وهو ردع للإنسان عن تلك المقالة، قال ابن عباس: المعنى لم ابتله بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ، بل ذلك إما على مذهب أهل السنة، فمن محض القضاء أو القدر والمشيئة، والحكم الذي تنزه عن التعليل بالعلل، وإما على مذهب المعتزلة فبسبب مصالح خفية لا يطلع عليها إلا هو، فقد يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لهوانه، ثم إنه تعالى لما حكى من أقوالهم تلك الشبهة فكأنه قال: بل لهم فعل هو شر من هذا القول، وهو أن الله تعالى يكرمهم بكثرة المال، فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم، فقال: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو: (يُكرِمُونَ) وما بعده بالياء المنقوطة من تحت، وذلك أنه لما تقدم ذكر الإنسان، وكان يراد به الجنس والكثرة، وهو على لفظة الغيبة، حمل يكرمون ويحبون

عليه، ومن قرأ بالتاء فالتقدير: قل لهم يا محمد ذلك.

المسألة الثانية: قال مقاتل: كان قدامة بن مظعون يتيمًا في حجر أمية بن خلف، فكان يدفعه عن حقه.

واعلم أن ترك إكرام اليتيم على وجوه: **أحدها**:ترك بره، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ **والثاني**:دفعه عن حقه الثابت له في الميراث وأكل ماله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ **والثالث**:أخذ ماله منه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ أي تأخذون أموال اليتامى وتضمونها إلى أموالكم، أما قوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ قال مقاتل: ولا تطعمون مسكينًا، والمعنى لا تأمرون بإطعامه كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣٤﴾ [الحاقة: ٣٣-٣٤]ومن قرأ: (ولا تحضون) أراد تتحاضون فحذف تاء تتفاعلون، والمعنى: لا يحض بعضكم بعضًا، وفي قراءة ابن مسعود: (تُحاضون) بضم التاء من المحاضة.

أما قوله:﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾، **ففيه مسائل**:

المسألة الأولى: قالوا: أصل التراث: وُراث، والتاء تبدل من الواو المضمومة، نحو تُجاه ووُجاه، من واجهت.

المسألة الثانية: قال الليث: اللم: الجمع الشديد، ومنه كتيبة ملمومة وحجر ملموم، والآكل يلم الثريد فيجعله لقمًا ثم يأكله ويقال: لممت ما على الخوان ألمه، أي أكلته أجمع، فمعنى اللم في اللغة الجمع، وأما التفسير ففيه وجوه: **أحدها**:قال الواحدي والمفسرون: يقولون في قوله: ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ أي شديدًا، وهو حل معنى وليس بتفسير، وتفسيره أن اللم مصدر جُعل نعتًا للأكل، والمراد به الفاعل، أي آكلاً لامًا أي جائعًا، كأنهم يستوعبونه بالأكل. قال الزجاج: كانوا يأكلون أموال اليتامى إسرافًا وبدارًا، فقال الله: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ أي تراث اليتامى لمًا أي تلمون جميعه. وقال الحسن: أي يأكلون نصيبهم ونصيب صاحبهم، فيجمعون نصيب غيرهم إلى نصيبهم. **وثانيها**:أن المال الذي يبقى من الميت بعضه حلال وبعضه شبهة وبعضه حرام، فالوارث يلم الكل، أي يضم البعض إلى البعض ويأخذ الكل ويأكله. **وثالثها**:قال صاحب (الكشاف): ويجوز أن يكون الذم متوجهًا إلى الوارث الذي ظفر بالمال سهلاً مهلاً من غير أن يعرق فيه جبينه، فيسرف في إنفاقه ويأكله أكلاً لمًا واسعًا، جامعًا بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعله الوراث البطالون.

أما قوله تعالى:﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ فاعلم أن الجم هو الكثرة، يقال: جم الشيء يجم جمومًا، يقال ذلك في المال وغيره، فهو شيء جم وجام وقال أبو عمرو: جم يجم، أي يكثر، والمعنى: ويحبون المال حبًا كثيرًا شديدًا، فبيَّن أن حرصهم على الدنيا فقط وأنهم عادلون عن أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿ كَلَّآ ﴾ ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم، أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على الدنيا وقصر الهمة والجهاد على تحصيلها، والاتكال عليها وترك المواساة منها وجمعها من حيث تتهيأ من حل أو حرام، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء. فإن من كان هذا حاله يندم حين لا تنفعه الندامة، ويتمنى أن لو كان أفنى عمره في التقرب بالأعمال الصالحة والمواساة من المال إلى الله تعالى. ثم بيَّن أنه إذا جاء يوم موصوف بصفات ثلاثة فإنه يحصل ذلك التمني وتلك الندامة:

الصفة الأولى من صفات ذلك اليوم: قوله: ﴿ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ قال الخليل: الدك كسر الحائط والجبل، والدكداك رمل متلبد، ورجل مدك، شديد الوطء على الأرض. وقال المبرد: الدك حط المرتفع بالبسط، واندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره، وناقة دكاء، إذا كانت كذلك ومنه الدكان لاستوائه في الانفراش. فمعنى الدك على قول الخليل كسر كل شيء على وجه الأرض من جبل أو شجر حين زُلزلت فلم يبق على ظهرها شيء، وعلى قول المبرد معناه أنها استوت في الانفراش فذهبت دورها وقصورها وسائر أبنيتها حتى تصير كالصخرة الملساء، وهذا معنى قول ابن عباس: تمد الأرض يوم القيامة.

واعلم أن التكرار في قوله: ﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ معناه دكًّا بعد دك، كقولك: حسبته بابًا بابًا وعلَّمته حرفًا حرفًا، أي كرر عليها الدك حتى صارت هباءً منثورًا. واعلم أن هذا التدكدك لا بد وأن يكون متأخرًا عن الزلزلة، فإذا زلزلت الأرض زلزلة بعد زلزلة وحُركت تحريكًا بعد تحريك، انكسرت الجبال التي عليها وانهدمت التلال وامتلأت الأغوار وصارت ملساء، وذلك عند انقضاء الدنيا وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧] وقال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤] وقال: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٤، ٥].

الصفة الثانية من صفات ذلك اليوم: قوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ .

واعلم أنه ثبت بالدليل العقلي أن الحركة على الله تعالى محال؛ لأن كل ما كان كذلك كان جسمًا والجسم يستحيل أن يكون أزليًّا فلا بد فيه من التأويل، وهو أن هذا من باب حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، ثم ذلك المضاف ما هو؟ فيه وجوه: **أحدها:** وجاء أمر ربك بالمحاسبة والمجازاة. **وثانيها:** وجاء قهر ربك، كما يقال جاءتنا بنو أمية، أي قهرهم. **وثالثها:** وجاء جلائل آيات ربك لأن هذا يكون يوم القيامة، وفي ذلك اليوم تظهر العظائم وجلائل الآيات، فجعل مجيئها مجيئًا له تفخيمًا لشأن تلك الآيات. **ورابعها:** وجاء ظهور ربك، وذلك لأن معرفة الله تصير في ذلك اليوم ضرورية فصار ذلك كظهوره وتجليه للخلق، فقيل: ﴿ وَجَآءَ

﴿رَبُّكَ﴾ أي زالت الشبهة وارتفعت الشكوك . **خامسها:** أن هذا تمثيل لظهور آيات الله وتبيين آثار قهره وسلطانه ، مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ، فإنه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسياسة مالا يظهر بحضور عساكره كلها . **وسادسها:** أن الرب هو المربي ، ولعل ملكًا هو أعظم الملائكة هو مربّ للنبي ﷺ جاء فكان هو المراد من قوله : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ .

أما قوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ فالمعنى أنه تنزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفًّا بعد صف محدقين بالجن والإنس .

الصفة الثالثة من صفات ذلك اليوم: قوله تعالى : ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١] قال جماعة من المفسرين : جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش فتشرد شردة لو تُركت لأحرقت أهل الجمع ، قال الأصوليون : ومعلوم أنها لا تنفك عن مكانها ، فالمراد ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي ظهرت حتى رآها الخلق ، وعلم الكافر أن مصيره إليها .

ثم قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ واعلم أن تقدير الكلام : إذا دُكت الأرض ، وحصل كذا وكذا ، فيومئذٍ يتذكر الإنسان ، وفي تذكره وجوه : **الأول:** أنه يتذكر ما فرط فيه لأنه حين كان في الدنيا كانت همته تحصيل الدنيا ، ثم إنه في الآخرة يتذكر أن ذلك كان ضلالاً ، وكان الواجب عليه أن تكون همته تحصيل الآخرة . **الثاني:** يتذكر أي يتعظ ، والمعنى أنه ما كان يتعظ في الدنيا فيصير في الآخرة متعظًا فيقول : ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، **الثالث:** يتذكر يتوب وهو مروي عن الحسن ، ثم قال تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ وقد جاءهم رسول مبين

واعلم أن بين قوله : ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ وبين قوله : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ تناقضًا فلا بد من إضمار المضاف والمعنى : ومن أين له منفعة الذكرى؟!

ويتفرع على هذه الآية مسألة أصولية ، وهي أن قبول التوبة عندنا غير واجب على الله عقلاً ، وقالت المعتزلة : هو واجب . فنقول : الدليل على قولنا أن الآية دلت ههنا على أن الإنسان يعلم في الآخرة أن الذي يعمله في الدنيا لم يكن أصلح له وأن الذي تركه كان أصلح له ، ومهما عرف ذلك لا بد وأن يندم عليه ، وإذا حصل الندم فقد حصلت التوبة ، ثم إنه تعالى نفى كون تلك التوبة نافعة بقوله : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فعلمنا أن التوبة لا يجب عقلاً قبولها ، فإن قيل : القوم إنما ندموا على أفعالهم لا لوجه قبحها بل لترتب العقاب عليها ، فلا جرم ما كانت التوبة صحيحة؟ قلنا : القوم لما علموا أن الندم على القبيح لا بد وأن يكون لوجه قبحه حتى يكون نافعًا ، وجب أن يكون ندمهم واقعًا على هذا الوجه ، فحينئذ يكونون آتين بالتوبة الصحيحة مع عدم القبول فصح قولنا .

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾

ثم شرح تعالى ما يقوله هذا الإنسان فقال تعالى : ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: للآية تأويلات:

أحدها: يا ليتني قدمت في الدنيا التي كانت حياتي فيها منقطعة -لحياتي هذه التي هي دائمة غير منقطعة، وإنما قال: ﴿لِحَيَاتِي﴾ ولم يقل: (لهذه الحياة) على معنى أن الحياة كأنها ليست إلا الحياة في الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] أي لهي الحياة.

وثانيها: أنه تعالى قال في حق الكافر: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧] وقال: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣] فهذه الآية دلت على أن أهل النار في الآخرة كأنه لا حياة لهم، والمعنى فياليتني قدمت عملاً يوجب نجاتي من النار حتى أكون من الأحياء.

وثالثها: أن يكون المعنى: فيا ليتني قدمت وقت حياتي في الدنيا، كقولك: جئته لعشر ليالٍ خلون من رجب.

المسألة الثانية: استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن الاختيار كان في أيديهم ومعلقًا بقصدهم وإرادتهم، وأنهم ما كانوا محجوبين عن الطاعات مجترئين على المعاصي. وجوابه: أن فعلهم كان معلقًا بقصدهم، فقصدهم إن كان معلقًا بقصد آخر لزم التسلسل، وإن كان معلقًا بقصد الله فقد بطل الاعتزال.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قراءة العامة (يعذب ويوثق) بكسر العين فيهما، قال مقاتل: معناه: فيومئذٍ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق، ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق، والمعنى لا يبلغ أحد من الخلق كبلاغ الله في العذاب والوثاق. قال أبو عبيدة: هذا التفسير ضعيف لأنه ليس يوم القيامة معذب سوى الله فكيف يقال: لا يعذب أحد في مثل عذابه؟ وأجيب عن هذا الاعتراض من وجوه: الأول: أن التقدير لا يعذب أحد في الدنيا عذاب الله الكافر يومئذٍ، ولا يوثق أحد في الدنيا وثاق الله الكافر يومئذٍ، والمعنى مثل عذابه ووثاقه في الشدة والمبالغة. الثاني: أن المعنى لا يتولى يوم القيامة عذاب الله أحد، أي الأمر يومئذٍ أمره ولا أمر لغيره. الثالث: - وهو قول أبي علي الفارسي-: أن يكون التقدير: لا يعذب أحد من الزبانية مثل ما يعذبونه، فالضمير في عذابه عائد إلى الإنسان. وقرأ الكسائي: (لا يعذب ولا يوثَق) بفتح العين فيها واختاره أبو عبيدة، وعن أبي عمرو أنه رجع إليها في آخر عمره؛ لما روي أن رسول الله ﷺ قرأهما بالفتح. والضمير للإنسان الموصوف، وقيل: هو أبي بن خلف ولهذه القراءة تفسيران: أحدهما: لا يعذب أحد مثل عذابه ولا يوثق بالسلاسل والأغلال مثل وثاقه؛ لتناهيه في كفره وفساده والثاني: أنه لا يعذب أحد من الناس عذاب الكافر، كقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] قال الواحدي: وهذه أولى الأقوال.

المسألة الثانية: العذاب في القراءتين بمعنى التعذيب، والوثاق بمعنى الإيثاق، كالعطاء بمعنى الإعطاء في قوله:

أكفرًا بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا[1]

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف حال من اطمأن إلى الدنيا، وصف حال من اطمأن إلى معرفته وعبوديته، فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: تقدير هذا الكلام. يقول الله للمؤمن: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ﴾ فإما أن يكلمه إكرامًا له كما كلم موسى عليه السلام أو على لسان ملك، وقال القفال: هذا وإن كان أمرًا في الظاهر لكنه خبر في المعنى، والتقدير أن النفس إذا كانت مطمئنة رجعت إلى الله، وقال الله لها: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر: ٢٩، ٣٠] قال: ومجيء الأمر بمعنى الخبر كثير في كلامهم، كقولهم: إذا لم تستح فاصنع ما شئت.

المسألة الثانية: الاطمئنان هو الاستقرار والثبات، وفي كيفية هذا الاستقرار وجوه: **أحدها:** أن تكون متيقنة بالحق، فلا يخالجها شك، وهو المراد من قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[البقرة: ٢٦٠] **وثانيها:** النفس الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، ويشهد لهذا التفسير قراءة أبي بن كعب: (يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة) وهذه الخاصة قد تحصل عند الموت عند سماع قوله: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾[فصلت: ٣٠] وتحصل عند البعث، وعند دخول الجنة لا محالة. **وثالثها:** -وهو تأويل مطابق للحقائق العقلية- فنقول: القرآن والبرهان تطابقا على أن هذا الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر الله، أما القرآن فقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨] وأما البرهان فمن وجهين: **الأول:** أن القوة العاقلة إذا أخذت تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات، فكلما وصل إلى سبب يكون هو ممكنًا لذاته طلب العقل له سببًا آخر، فلم يقف العقل عنده، بل لا يزال ينتقل من كل شيء إلى ما هو أعلى منه، حتى ينتهي في ذلك الترقي إلى واجب الوجود لذاته مقطع الحاجات. ومنتهى الضرورات، فلما وقفت الحاجة دونه وقف العقل عنده واطمأن إليه، ولم ينتقل عنه إلى غيره، فإذًا كلما كانت القوة العاقلة ناظرة إلى شيء من الممكنات ملتفتة إليه استحال أن تستقر عنده، وإذا نظرت إلى جلال واجب الوجود، وعرفت أن الكل منه، استحال أن تنتقل عنه، فثبت أن الاطمئنان لا يحصل إلا بذكر واجب الوجود: **الثاني:** أن حاجات العبد غير متناهية وكل ما سوى الله تعالى فهو متناهي البقاء والقوة إلا بإمداد الله، وغير المتناهي لا يصير مجبورًا بالمتناهي، فلا بد في مقابلة حاجة العبد التي لا نهاية لها من كمال الله الذي لا نهاية له حتى يحصل الاستقرار، فثبت أن كل من آثر معرفة الله لا لشيء

(١) هذا البيت للقطامي التغلبي، وقد تقدمت ترجمته.

غير الله فهو غير مطمئن، وليست نفسه نفسًا مطمئنة، أما من آثر معرفة الله لشيء سواه فنفسه هي النفس المطمئنة، وكل من كان كذلك كان أنسه بالله وشوقه إلى الله وبقاؤه بالله وكلامه مع الله، فلا جرم يخاطب عند مفارقته الدنيا بقوله: ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ وهذا كلام لا ينتفع الإنسان به إلا إذا كان كاملاً في القوة الفكرية الإلهية أو في التجريد والتفريد.

المسألة الثالثة: اعلم أن الله تعالى ذكر مطلق النفس في القرآن فقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧] وقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وتارة وصفها بكونها أمارة بالسوء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وتارة بكونها لوامة، فقال: ﴿بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] وتارة بكونها مطمئنة كما في هذه الآية. واعلم أن نفس ذاتك وحقيقتك وهي التي تشير إليها بقولك: (أنا) حين تخبر عن نفسك بقولك: فعلت ورأيت وسمعت وغضبت واشتهيت وتخيلت وتذكرت، إلا أن المشار إليه بهذه الإشارة ليس هو هذه البنية لوجهين: **الأول**: أن المشار إليه بقولك: (أنا) قد يكون معلومًا حال ما تكون هذه البنية المخصوصة غير معلومة، والمعلوم غير ما هو غير معلوم. **والثاني**: أن هذه البنية متبدلة الأجزاء، والمشار إليه بقولك: (أنا) غير متبدل، فإني أعلم بالضرورة أني أنا الذي كنت موجودًا قبل هذا اليوم بعشرين سنة، والمتبدل غير ما هو غير متبدل، فإذًا ليست النفس عبارة عن هذه البنية، وتقول: قال قوم: إن النفس ليست بجسم لأنا قد نعقل المشار إليه بقوله: (أنا) حال ما أكون غافلاً عن الجسم الذي حقيقته المختص بالحيز الذاهب في الطول والعرض والعمق. والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم، وجواب المعارضة بالنفس مذكور في كتابنا المسمى بلباب الإشارات، وقال آخرون: بل هو جوهر جسماني لطيف صاف بعيد عن مشابهة الأجرام العنصرية نوراني سماوي مخالف بالماهية لهذه الأجسام السفلية، فإذا صارت مشابكة لهذا البدن الكثيف صار البدن حيًّا وإن فارقته صار البدن ميتًا، وعلى التقدير الأول يكون وصفها بالمجيء والرجوع بمعنى التدبير وتركه، وعلى التقدير الثاني يكون ذلك الوصف حقيقًا.

المسألة الرابعة: من القدماء من زعم أن النفوس أزلية، واحتجوا بهذه الآية وهي قوله: ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ فإن هذا إنما يقال لما كان موجودًا قبل هذا البدن.

واعلم أن هذا الكلام يتفرع على أن هذا الخطاب متى يوجد؟ وفيه وجهان: **الأول**: أنه إنما يوجد عند الموت، وههنا تقوى حجة القائلين بتقدم الأرواح على الأجساد، إلا أنه لا يلزم من تقدمها عليها قدمها. **الثاني**: أنه إنما يوجد عند البعث والقيامة، والمعنى: ارجعي إلى ثواب ربك، فادخلي في عبادي، أي ادخلي في الجسد الذي خرجتِ منه.

المسألة الخامسة: المجسمة تمسكوا بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ وكلمة (إلى) لانتهاء الغاية.

وجوابه: إلى حكم ربك، أو إلى ثواب ربك أو إلى إحسان ربك، والجواب الحقيقي المفرع على القاعدة العقلية التي قررناها، أن القوة العقلية بسيرها العقلي تترقى من موجود إلى موجود

آخر، ومن سبب إلى سبب حتى تنتهي إلى حضرة واجب الوجود، فهناك انتهاء الغايات وانقطاع الحركات.

أما قوله تعالى: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ فالمعنى راضية بالثواب، مَرضية عنك في الأعمال التي عملتِها في الدنيا. ويدل على صحة هذا التفسير ما روي أن رجلاً قرأ عند النبي ﷺ هذه الآيات، فقال أبو بكر: ما أحسن هذا! فقال عليه الصلاة والسلام: «أَمَا إِنَّ الْمَلَكَ سَيَقُولُهَا لَكَ»(١).

قوله تعالى: ﴿ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠ ﴾

ثم قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قيل: نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وقيل: في خبيب بن عدي الذي صلبه أهل مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحَوِّل وجهي نحو بلدتك!! فحَوَّل الله وجهه نحوها، فلم يستطع أحد أن يحوله. وأنت قد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي انضمي إلى عبادي المقربين، وهذه حالة شريفة، وذلك لأن الأرواح الشريفة القدسية تكون كالمرايا المصقولة، فإذا انضم بعضها إلى البعض حصلت فيما بينها حالة شبيهة بالحالة الحاصلة عند تقابل المرايا المصقولة من انعكاس الأشعة من بعضها على بعض، فيظهر في كل واحد منها كل ما ظهر في كلها، وبالجملة فيكون ذلك الانضمام سببًا لتكامل تلك السعادات، وتعاظم تلك الدرجات الروحانية، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١] وذلك هو السعادة الروحانية، ثم قال: ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ وهذا إشارة إلى السعادة الجسمانية، ولما كانت الجنة الروحانية غير متراخية عن الموت في حق السعداء، لا جرم قال: ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ فذكره بفاء التعقيب، ولما كانت الجنة الجسمانية لا يحصل الفوز بها إلا بعد قيام القيامة الكبرى، لا جرم قال: ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ فذكره بالواو لا بالفاء.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) إسناده ضعيف: رواه ابن مسعود في (أماليه) (١/ ٥٠) حديث رقم (٢٢٢) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٣٠/ ٤٣٣) حديث رقم (٦٤٥٤) كلاهما من طريق يحيى بن يمان حدثنا أشعث عن جعفر عن سعيد... به وفي إسناده يحيى بن يمان قال الحافظ: صدوق يخطئ كثيرًا وقد تغير وأيضًا في إسناده انقطاع بين سعيد بن جبير وأبي بكر الصديق.

سورة «الفجر»

مكِّيةٌ، وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ أَقْسَمَ بالفجر. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أقسامٌ خمسةٌ. واختُلِف في «الفجر»؛ فقال قومٌ: الفجر هنا: انفجارُ الظُّلْمةِ عن النهار من كلِّ يومٍ؛ قاله عليٌّ وابن الزُّبير وابن عباس ﷺ[1].

وعن ابن عباس أيضاً: أنَّه النهارُ كلُّه، وعَبَّر عنه بالفجر لأنه أوَّله[2].

وقال ابن مُحَيْصن عن عطية عن ابن عباس: يعني فجرَ يومِ المحرَّمِ. ومثلُه قال قتادة. قال: هو فجرُ أوّلِ يومٍ من المحرَّم، منه تنفجرُ السنة[3].

وعنه أيضًا: صلاة الصبح[4].

وروى ابنُ جريجٍ عن عطاءٍ عن ابن عباس قال: «والفجر»: يريدُ صبيحةَ يومِ النَّحْرِ؛ لأنَّ الله تعالى جلَّ ثناؤه جعل لكلِّ يومٍ ليلةً قَبْلَه، إلاَّ يومَ النَّحْرِ لم يَجعَلْ له ليلةً قبله ولا ليلةً بعده؛ لأنَّ يومَ عرفةَ له ليلتان: ليلةٌ قبله وليلةٌ بعده، فَمَن أدركَ الموقفَ ليلةً بعد عرفةَ، فقد أَدْركَ الحجَّ إلى طلوع الفجر، فجرِ يومِ النَّحْرِ. وهذا قولُ مجاهد[5].

---

(١) الوسيط ٤/ ٤٧٨، وزاد المسير ٩/ ١٠٢ عن ابن عباس، وذكره عن علي بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٥.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٥ وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٤٤.

(٣) الوسيط ٤/ ٤٧٨.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٤٤.

(٥) ذكره عن مجاهد الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٥، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٤.

وقال عكرمةُ: «والفجر» قال: انْشِقاقُ الفجرِ من يومِ جَمْع[1]. وعن محمد بن كعب القُرَظِيِّ: «والفجرِ»: آخر أيامِ العَشْرِ، إذا دفَعْتَ من جَمْع.

وقال الضحاك: فجر ذي الحجة؛ لأنَّ الله تعالى قَرَنَ الأيامَ به فقال: «وليالٍ عشرٍ»، أي: ليالِ عشرٍ مِن ذي الحجة[2]. وكذا قال مجاهدٌ والسدِّيُّ والكلبيُّ في قوله: «وليالٍ عَشْرٍ»: هو عَشْرُ ذي الحجة، وقاله ابن عباس. وقال مسروق: وهي العَشْرُ التي ذَكَرها الله في قصةِ موسى عليه السلام: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف:١٤٢]، وهي أفضلُ أيامِ السَّنة[3].

وروى أبو الزبير عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: «عشر الأضحى»[4] فهي ليالِ عشر على هذا القول؛ لأنَّ ليلةَ يومِ النحر داخلةٌ فيه، إذ قد خصَّها الله بأنْ جَعَلَها موقفاً لمن لم يُدْرِكِ الوقوفَ يومَ عرفةَ. وإنَّما نكِّرتْ ولم تعرَّفْ لفضيلتها على غيرها، فلو عُرِّفت لم تَسْتَقِلَّ بمعنى الفضيلةِ الذي في التنكير، فنكِّرتْ مِن بينِ ما أقسم به، للفضيلة التي ليست لغيرها. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: هي العشرُ الأواخِرُ من رمضان. وقاله الضحاك[5].

وقال ابن عباس أيضاً ويمان والطبريُّ: هي العشرُ الأوَّلُ من المحرَّم، التي عاشِرُها يومُ عاشوراءَ[6]. وعن ابن عباس: «وليالِ عشرٍ» ـ بالإضافة ـ يريد: وليالِ أيامِ عشر[7].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٤ بلفظ: طلوعُ الفجر غداةَ جمع. وجمع هو المزدلفة. القاموس (جمع).

(٢) الوسيط ٤/ ٤٧٨.

(٣) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٤٥-٣٤٧.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦)، وسيأتي لفظه بتمامه.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٦، وأخرجه عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٧٩.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٤٨١، وزاد المسير ٩/ ١٠٤ عن يمان (وهو ابن رئاب)، وحكى الطبري ٢٤/ ٣٤٨ هذا القول دون نسبة ثم قال: والصواب من القول في ذلك عندنا أنها عشر الأضحى؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه.

(٧) الكشاف ٤/ ٢٤٩. قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٠: بعضهم يكتب «ليال» في هذه القراءة دون ياء، وبعضهم قال: وليالي بالياء، وهو القياس.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾

الشفع: الاثنان، والوتر: الفرد. واختُلف في ذلك؛ فرُوي مرفوعاً عن عِمران بن الحصين عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الشفع والوتر: الصلاةُ؛ منها شَفْعٌ، ومنها وَتْر»(١). وقال جابر بنُ عبد الله: قال النبيُّ ﷺ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: «هو الصبحُ، وعَشْرُ النَّحْرِ، والوتر: يومُ عرفةَ، والشفعُ: يومُ النحر»(٢). وهو قولُ ابن عباس وعكرمة(٣). واختاره النحاس، وقال: حديثُ أبي الزبيرِ عن جابرٍ هو الذي صحَّ عن النبيِّ ﷺ، وهو أصحُّ إسناداً من حديث عِمران بن حُصين. فيومُ عرفةَ وترٌ لأنه تاسِعُها، ويومُ النحرِ شفعٌ لأنه عاشِرُها.

وعن أبي أيوب قال: سُئل النبيُّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ فقال: «الشَّفعُ: يومُ عرفةَ ويومُ النحرِ، والوترُ: ليلةُ يومِ النحر»(٤).

وقال مجاهدٌ وابن عباس أيضاً: الشَّفعُ خَلْقُه؛ قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النبأ:٨]، والوَتْر هو الله عزَّ وجل(٥). فقيل لمجاهد: أَتَرْوِيهِ عن أحد؟ قال: نعم، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، عن النبيِّ ﷺ(٦). ونَحوَه قال محمد بن سيرين ومسروقٌ وأبو صالحٍ وقتادةُ، قالوا: الشفعُ: الخَلْقُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلال، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحر والبرد، والشمس والقمر، والصيف والشتاء،

(١) أخرجه أحمد (١٩٩١٩)، والترمذي (٣٣٤٢) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة. اهـ. وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن عمران.

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦)، واللفظ له، وسلف قريباً.

(٣) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٤٩ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٠٧٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧ : فيه واصل بن السائب وهو متروك.

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٥١ و٣٥٢ .

(٦) لم نقف عليه، وقال البغوي ٤/ ٤٨١ : روي ذلك عن أبي سعيد.

والسماء والأرض، والجنّ والإنس. والوتر: هو الله عزَّ وجلَّ، قال جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾[1]. وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ للهِ تسعةً وتسعين اسماً، واللهُ وِتْرٌ يُحبُّ الوِتر»[2].

وعن ابن عباس أيضاً: الشفعُ: صلاةُ الصبح، والوترُ: صلاةُ المغرب.

وقال الربيع بن أنس وأبو العالية: هي صلاةُ المغرب؛ الشفعُ فيها ركعتان، والوترُ الثالثة.

وقال ابن الزُّبير: الشفعُ: يوما مِنًى؛ الحادي عشر، والثاني عشر. والثالث عشر: الوتر؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣]

وقال الضحاك: الشَّفعُ: عَشْرُ ذي الحجة، والوتر: أيامُ مِنًى الثلاثة. وهو قولُ عطاء.

وقيل: إنَّ الشفعَ والوتر: آدمُ وحوّاء؛ لأنَّ آدم كان فرداً فشُفِع بزوجته حوّاء، فصار شفعاً بعد وترٍ. رواه ابن أبي نَجيح، وحكاه القشيريُّ عن ابن عباس.

وفي رواية: الشفع: آدمُ وحوّاء، والوتر هو الله تعالى.

وقيل: الشفع والوتر: الخَلْقُ؛ لأنهم شفعٌ ووتر، فكأنه أَقْسَم بالخلق[3]. وقد يُقْسِمُ الله تعالى بأسمائه وصفاته لعِلْمِه، ويقسمُ بأفعاله لقدرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣]. ويقسمُ بمفعولاته، لعجائب صُنْعِه، كما قال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٤٨١ عن مجاهد ومسروق، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٥١ عن مجاهد وأبي صالح.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٢)، والبخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٠-٣٥٤، والنكت والعيون ٦/ ٢٦٦، وزاد المسير ٩/ ١٠٦-١٠٧.

وقيل: الشفعُ: دَرَجاتُ الجنة، وهي ثمان. والوترُ دَرَكاتُ النارِ؛ لأنها سبعةٌ. وهذا قولُ الحسين بن الفضل، كأنه أقسم بالجنة والنار.

وقيل: الشَّفعُ: الصفا والمروةُ، والوترُ: الكَعْبة.

وقال مقاتل بن حَيَّان: الشفع: الأيامُ والليالي، والوتر: اليوم الذي لا ليلةَ بعده، وهو يومُ القيامةِ.

وقال سفيان بن عُيينة: الوترُ هو الله، وهو الشفع أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

وقال أبو بكر الورَّاقُ: الشفعُ: تَضادُّ أوصافِ المخلوقين: العِزُّ والذلُّ، والقدرةُ والعجزُ، والقوّةُ والضعفُ، والعلمُ والجهلُ، والحياةُ والموتُ، والبصرُ والعَمَى، والسَّمْعُ والصَّمَم، والكلامُ والخَرَس. والوتر: انفرادُ صفاتِ الله تعالى: عِزٌّ بلا ذلٍّ، وقدرةٌ بلا عجزٍ، وقوّةٌ بلا ضعفٍ، وعلمٌ بلا جهلٍ، وحياةٌ بلا موتٍ، وبصرٌ بلا عَمًى، وكلامٌ بلا خَرَسٍ، وسمعٌ بلا صَمَمٍ، وما وازاها.

وقال الحسن: المرادُ بالشَّفْعِ والوَتْرِ: العددُ كلُّه؛ لأنَّ العددَ لا يخلو عنهما، وهو إقسامٌ بالحساب.

وقيل: الشَّفعُ: مسجدُ مكةَ والمدينةِ، وهما الحرمان. والوتر: مسجدُ بيتِ المقدس.

وقيل: الشَّفع: القِرَانُ بين الحجِّ والعمرةِ، أو التمتُّعُ بالعمرة إلى الحج. والوتر: الإفرادُ فيه.

وقيل: الشفع: الحيوان؛ لأنه ذَكَرٌ وأُنثَى. والوتر: الجماد.

وقيل: الشفع: ما يَنْمي، والوتر: ما لا يَنْمي. وقيل غيرُ هذا(١).

---

(١) تنظر هذه الأقوال في النكت والعيون ٦/ ٢٦٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨١-٤٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٧، وزاد المسير ٩/ ١٠٦-١٠٧ قال الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٤٩: وقد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناسَ ما يقعان فيه، وذلك قليلُ الطائل، جديرٌ بالتَّلهي عنه.

وقرأ ابن مسعود وأصحابُه والكسائيُّ وحمزةُ وخلف: «والوِترِ» بكسر الواو. والباقون بفتح الواو[١]، وهما لغتان بمعنًى واحدٍ. وفي «الصحاح»[٢]: الوِتر بالكسر: الفرد، والوَتْر بفتح الواو: الذَّحْل[٣]. هذه لغةُ أهلِ العالية. فأمَّا لغُة أهلِ الحجاز فبالضِّدِّ منهم. فأمَّا تميمٌ فبالكسرِ فيهما.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ وهذا قَسَمٌ خامسٌ. وبعدَ ما أَقْسَم بالليالي العَشْرِ على الخصوص، أَقْسَم بالليل على العموم. ومعنى «يسري» أي: يُسْرَى فيه، كما يقال: ليلٌ نائمٌ، ونهارٌ صائمٌ؛ قال:

لَقَدْ لُمْتِنا يا أمَّ غَيلانَ في السُّرَى ... ونِمْتِ وما ليلُ المطِيِّ بنائمِ[٤]

ومنه قولُه تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣]. وهذا قولُ أكثرِ أهلِ المعاني، وهو قولُ القُتَبيِّ والأخفش[٥].

وقال أكثرُ المفسِّرين: معنى «يَسْرِي»: سار فذهب[٦].

وقال قتادةُ وأبو العاليةِ: جاء وأَقْبَل[٧].

ورُوِي عن إبراهيم: «والليلِ إذا يَسْرِ» قال: إذا استوى.

وقال عكرمةُ والكلبيُّ ومجاهدٌ ومحمد بن كعب في قوله «والليلِ»: هي ليلةُ

---

(١) السبعة ص٦٨٣ ، والتيسير ص٢٢٢ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٢) مادة (وتر).

(٣) الذحل: الحقد والعداوة. الصحاح (ذحل).

(٤) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩٩٣ ، وسلف ١١/ ٢٠ .

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٥٢٦ ، وسيأتي عن الأخفش.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٥٦-٣٥٧ عن ابن الزبير وابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي العالية وابن زيد.

(٧) ذكره عن قتادة البغوي ٤/ ٤٨٢ ، وابن الجوزي ٩/ ١٠٨ .

المزدلفةِ خاصةً؛ لاختصاصها باجتماع الناسِ فيها لطاعة الله[١].

وقيل: ليلة القَدْر؛ لسِرايةِ الرحمةِ فيها، واختصاصِها بزيادةِ الثوابِ فيها[٢].

وقيل: إنه أراد عمومَ الليلِ كلِّه.

قلت: وهو الأظهرُ كما تقدَّم. والله أعلم.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ مُحيصنٍ ويعقوبُ: «يسري» بإثباتِ الياءِ في الحالين، على الأصل؛ لأنها ليست بمجزومةٍ، فتَثْبتُ فيها الياء. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، وبحذفها في الوقف[٣]، وروي عن الكسائيّ. قال أبو عبيد: كان الكسائيُّ يقول مرةً بإثبات الياء في الوصل، وبحذفها في الوقف؛ اتِّباعاً للمصحف، ثم رجع إلى حَذْفِ الياءِ في الحالين جميعاً[٤]؛ لأنَّه رأسُ آيةٍ، وهي قراءةُ أهلِ الشَّامِ والكوفةِ، واختيارُ أبي عُبيد، اتِّباعًا للخطِّ؛ لأنَّها وقعت في المصحفِ بغيرِ ياءٍ. قال الخليل: تسقطُ الياءُ منها اتِّفاقًا لرؤوسِ الآي.

قال الفرَّاء: قد تحذفُ العربُ الياءَ وتكتفي بكَسْرِ ما قَبْلَها، وأنشد بعضُهم:

كـفَّـاكَ كَـفٌّ مـا تُـلِـيـقُ دِرهَـمًـا ... جُوداً وأخرى تُعْطِ بالسَّيفِ الدِّمَا[٥]

يقال: فلانٌ ما يُلِيقُ درهماً من جُودِه، أي: ما يمُسِكُه، ولا يلصقُ به.

وقال المؤرِّج: سألتُ الأخفشَ عن العِلَّة في إسقاطِ الياءِ من «يَسْرِ»، فقال: لا أُجِيبُكَ حتى تَبِيتَ على بابِ داري سنةً، فبِتُّ على بابِ دارِه سنةً[٦]، فقال: الليلُ لا

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٦٦، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، وأخرجه عن عكرمة الطبري ٢٤/ ٣٥٧-٣٥٨.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٦.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر أيضاً. السبعة ص٦٨٣، والتيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٤) وهذا هو المشهور عنه: حذف الياء في الحالين، وذكر قول أبي عبيد ابن مجاهد في السبعة ص٦٨٣.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠. وسلف البيت ١١/ ٢٠٩.

(٦) كذا في النسخ، ولعل الصواب في الموضعين: ليلة، كما في البرهان للزركشي ٣/ ١٠٧، وذكر القصة أيضاً صاحب كتاب الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٦٠ وفيه: حتى تبيت على باب داري، دون تعيين.

يَسْري وإنَّما يُسْرَى فيه، فهو مصروفٌ، وكلُّ ما صَرَفْتَه عن جِهَتِه بَخَسْتَه من إعرابه، ألَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨]، ولم يَقُلْ: بغيَّةً، لأنه صَرَفَها عن باغية[١].

الزمخشريُّ: وياءُ «يسري» تُحذفُ في الدَّرْج اكتفاءً عنها بالكسرة، وأمّا في الوقف فتُحذَفُ مع الكسرة. وهذه الأسماءُ كلُّها مجرورةٌ بالقَسَم، والجوابُ محذوفٌ، وهو: لَيُعَذَّبُنَّ، يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[٢].

وقال ابن الأنباريِّ: هو: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصادِ»[٣].

وقال مقاتلٌ: «هل» هنا في موضع إنَّ؛ تقديرُهُ: إنَّ في ذلك قَسَماً لذي حِجْر. فـ«هل» على هذا في موضعِ جوابِ القَسَم[٤]. وقيل: هل[٥] على بابها من الاستفهام الذي معناه التقدير، كقولك: أَلَمْ أُنْعِمْ عليك؟ إذا كنتَ قد أَنْعَمْتَ.

وقيل: المرادُ بذلك التأكيدُ لِمَا أَقْسَم به وأَقْسَم عليه. والمعنى: بل في ذلك مَقْنَعٌ لذي حِجْرٍ. والجوابُ على هذا: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصادِ». أو مُضْمَرٌ محذوفٌ.

ومعنى ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ أي: لذي لُبٍّ وعقلٍ، قال الشاعر:

وكيف يُرَجَّى أَنْ تَتوبَ وإنَّما يُرَجَّى من الفِتيانِ مَن كان ذا حِجْرِ[٦]

---

(١) ذكر قول الأخفش دون ذكر القصة البغوي ٤/ ٤٨٢.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٤٩ و٢٥٠.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٧٦.

(٤) قال أبو حيان في البحر ٨/ ٤٦٩: هذا قولٌ لم يَصْدُرْ عن تأمُّل؛ لأن المقسَمَ عليه ـ على تقدير أن يكون التركيب: إن في ذلك قسماً لذي حجر ـ لم يُذْكَر، فيبقى قسم بلا مُقْسَمٍ عليه؛ لأن الذي قدَّره لا يصح أن يكون مُقْسَماً عليه. اهـ. وذكر قول مقاتل الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٧ دون قوله: فـ«هل» على هذا...

(٥) في (م): هي.

(٦) البيت للحارث بن مُنَبِّهٍ الجنبي، كما روى ابن الأنباري عن السدي في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٧٥، وفيه: وكيف رجائي أن تثوب وإنما...

كذا قال عامَّةُ المفسِّرين[١]، إلَّا أنَّ أبا مالكٍ قال: «لِذِي حِجْرٍ» لذي سِتْرٍ من الناس[٢]. وقال الحسن: لذي حِلْم[٣]. قال الفرَّاء: الكلُّ يرجعُ إلى معنًى واحدٍ: لذي حِجْر، ولذي عقلٍ، ولذي حِلْمٍ، ولذي سِتْرٍ؛ الكلُّ بمعنى العقل[٤].

وأصلُ الحِجر: المنعُ. يقال لِمَن مَلَكَ نفسَه ومَنَعها: إنه لذو حِجْر، ومنه سمِّي الحَجَر؛ لامتناعه بصلابته، ومنه: حَجر الحاكمُ على فلان، أي: مَنَعه وضَبَطَه عن التصرُّف؛ ولذلك سمِّيتِ الحُجْرةُ حجرةً؛ لامتناعِ ما فيها بها. وقال الفرَّاء[٥]: العربُ تقول: إنه لذو حِجْر: إذا كان قاهراً لنفسِه، ضابطاً لها كأنه أُخِذَ من: حَجَرتُ على الرجل.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: مالِكُكَ وخالِقُكَ. ﴿بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ قراءةُ العامَّةِ: «بعادٍ» منوَّناً. وقرأ الحسن وأبو العالية: «بِعادِ إرَمَ» مضافاً[٦]. فَمَن لم يُضِفْ جعل «إرَمَ» اسمَه، ولم يَصْرِفْه؛ لأنه جعل عادًا اسمَ أبيهم، وإرمَ اسمَ القَبِيلة، وجعله بدلاً منه أو عَطْفَ بيانٍ. ومَن قَرَأه بالإضافة ولم يَصْرِفه جعله اسمَ أمِّهم[٧]، أو اسمَ بلدتهم.

وتقديرُه[٨]: بعادِ أهلِ إرمَ، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. ولم تنصرفْ ـ

---

(١) تنظر أقوالهم في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٨-٣٦٠.
(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٧.
(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٠.
(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠ بنحوه.
(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٦٠.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠ عن الحسن، وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٥٠ عن ابن الزبير رضي الله عنهما.
(٧) في (ظ): أبيهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح (أرم) والكلام منه.
(٨) يعني على قراءة العامة وليس على قراءة الإضافة، وذلك على القول بأن «إرم» هو اسم البلدة أو المدينة. ينظر الكشاف ٤/ ٢٥٠، وتفسير الرازي ٣١/ ١٦٧، والدر المصون ١٠/ ٧٨٢، واللباب ٢٠/ ٣١٥.

قبيلةً كانت أو أرضًا ـ للتعريفِ والتأنيث[١].

وقراءةُ العامةِ: «إِرَمَ» بكَسْرِ الهمزة. وعن الحسن أيضاً: «بعادَ إرَمَ» مفتوحتين[٢].

وقرِئ: «بعادِ أَرْمَ» بسكونِ الراء، على التخفيف، كما قرئ: «بورْقِكم»[٣].

وقرئ: «بِعادِ إرَمِ ذاتِ العِمادِ» بإضافة «إرَمِ» إلى «ذاتِ العِمادِ». والإرَمُ: العَلَم. أي: بعادِ أهلِ أعلامِ ذاتِ العماد[٤].

وقرئ: «بِعادٍ أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ» أي: جعل الله ذاتَ العمادِ رميمًا[٥].

وقرأ مجاهدٌ والضحاكُ وقتادةُ: «أَرم» بفتح الهمزة[٦]. قال مجاهد: مَن قرأ بفتح الهمزة شبَّههم بالآرام، التي هي الأعلام، واحدُها: أَرِم[٧].

وفي الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ، أي: والفجرِ وكذا وكذا إنَّ ربَّك لبالمِرصاد «أَلَمْ تَرَ» أي: أَلَم يَنْتهِ عِلْمُكَ إلى ما فعل ربُّك بعاد. وهذه الرؤيةُ رؤيةُ القلب، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ عامٌّ. وكان أمرُ عادٍ وثمودَ عندهم مشهوراً؛ إذ كانوا في بلادِ

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨ ، والكشاف ٤/ ٢٥٠ ، و«عادَ» على هذه القراءة غير مصروفة كما ذكر ابن خالويه وابن عطية.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، وهي بفتح الهمزة من «أرم»، كذا ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٩ ، وأبو حيان في البحر ٨/ ٤٦٩ عن الضحاك. قال السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٣ : هي تخفيف «أرِم» بكسر الراء، وهي لغة في اسم المدينة . اهـ . و«عاد» على هذه القراءة رويت مصروفة وغير مصروفة، كما ذكر أبو حيان.

(٤) في النسخ: أي بعاد أهل ذات العلم، والمثبت من الكشاف ٤/ ٢٥٠ والكلام منه. وهي أعلام كان قوم عاد يبنونها على هيئة المنارة وعلى هيئة القبور، كما ذكر الرازي ٣١/ ١٦٧ .

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٠ . وهي بدل من: «فَعَل ربك» كما ذكر الزمخشري، أو دعاء عليهم، كما ذكر السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٣ . والقراءة ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٣٥٩ وستأتي.

(٦) القراءة بفتح الهمزة ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨ عن الضحاك وقيدها بفتح الراء، وعن ابن الزبير وقيدها بكسر الراء، وقرئت أيضاً: «أَرْم» بسكون الراء كما سلف .

(٧) مثل كَتِف، وكذلك إرَم، مثل: عِنب. القاموس (أرم).

العرب، وحِجْرُ ثمودَ موجودٌ اليوم. وأمرُ فرعونَ كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضتْ به الأخبار، وبلادُ فرعونَ متَّصلةٌ بأرضِ العرب. وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة البروج[(١)] وغيرها.

﴿بِعَادٍ﴾ أي: بقومِ عاد. فروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هريرة قال: إنْ كان الرجلُ من قومِ عادٍ لَيتَّخذُ المِصْراعَ من حجارة، ولو اجتمع عليه خمسُ مئةٍ من هذه الأمةِ لم يستطيعوا أن يُقِلُّوه، وإنْ كان أحدُهم ليُدخِلُ قدمَه في الأرض فتدخلُ فيها[(٢)].

و«إِرَم»، قيل: هو سام بنُ نوح؛ قاله ابنُ إسحاق[(٣)]. وروى عطاء عن ابن عباس ـ وحكي عن ابن إسحاق أيضاً ـ قال: عاد بن إرَم. فإرَمُ على هذا أبو عاد، وعاد بن إرَم ابن عوص بن سام بن نوح[(٤)]. وعلى القول الأوّل: هو اسمُ جدِّ عاد. قال ابن إسحاق: كان سام بنُ نوح له أولاد، منهم إرم بنُ سام، وأَرْفَخْشَذ بن سام. فَمِن ولد إرم بنِ سام العمالقةُ والفراعنةُ والجبابرةُ والملوكُ الطغاةُ والعصاة.

وقال مجاهد: «إرَم» أمّةٌ من الأمم. وعنه أيضاً: أنَّ معنى إرَمَ: القديمة، ورواه ابن أبي نَجِيح[(٥)]. وعن مجاهدٍ أيضاً أنَّ معناها: القوية.

وقال قتادة: هي قبيلةٌ من عاد[(٦)]. وقيل: هما عادان. فالأولى هي إرَم؛ قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]. فقيل لعقِب عاد بن عَوْص بن إرَمَ بن سام بن نوح: عاد، كما يقال لنبي هاشم: هاشم. ثم قيل للأولين منهم: عاد الأولى

---

(١) ص١٩٨ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٧٩٨ (١٥٨٣٧).

(٣) الذي قال إن إرم هو سام بن نوح، الكلبي كما في تهذيب اللغة ١٥/ ٣٠١، وقول ابن إسحاق الذي ذكره ابن هشام في السيرة ١/ ٧: أن إرم هو ابن سام بن نوح. وسيأتي.

(٤) ذكر هذه الرواية عن ابن إسحاق الطبري ٢٤/ ٣٦٣، والماوردي ٦/ ٢٦٨.

(٥) أخرج القولين عن مجاهد الطبري ٢٤/ ٣٦٢.

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٢-٣٦٣.

ـ وإِرَم: تسميةٌ لهم باسمِ جَدِّهم ـ ولمَن بعدهم: عادٌ الأخيرة[١]. قال ابن الرُّقَيّات:

مَـجْـدًا تـلِـيـداً بـنـاهُ أوَّلُـهـم أَدْرَكَ عـاداً وقـبـلـهُ إرَمـا[٢]

وقال مَعْمر: «إرم»: إليه مجمعُ عاد وثمود، وكان يقال: عادُ إرَمَ، وعادُ ثَمُودَ[٣]. وكانت القبائلُ تنتسب[٤] إلى إرم.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ، ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ قال ابن عباس في رواية عطاء: كان الرجلُ منهم طولُه خمسُ مئةِ ذراع، والقصيرُ منهم طولُه ثلاثُ مئةِ ذراعٍ بذراع نفسه. ورُوي عن ابن عباس أيضاً أنَّ طولَ الرجلِ منهم كان سبعين ذراعاً. ابن العربيِّ[٥]: وهو باطلٌ؛ لأنَّ في الصحيح: «إنَّ الله خَلَقَ آدمَ طولُه ستُّونَ ذراعاً في الهواء، فلم يَزَل الخَلْقُ يَنقُصُ إلى الآن»[٦]. وزعم قتادة: أنَّ طولَ الرجلِ منهم اثنا عَشَرَ ذراعاً[٧].

قال أبو عبيدة[٨]: «ذاتِ العِمادِ»: ذات الطُّول. يقال: رجلٌ مُعَمَّدٌ: إذا كان طويلاً. ونحوه عن ابن عباس ومجاهد[٩].

وعن قتادة أيضاً: كانوا عِمادًا لقومهم؛ يقال: فلانٌ عميدُ القومِ وعَمودُهم، أي: سيدُهم وعنه أيضاً: قيل لهم ذلك؛ لأنهم كانوا ينتقلون بأبياتهم للانتجاع، وكانوا

---

(١) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٧، وذكر هذا القول مختصراً أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٧، والزجاج في معاني القرآن ٥/ ٣٢٢.

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص١٥٥.

(٣) ذكره البغوي ٤/ ٤٨٢ عن الكلبي، وفيه: عاد إرم وثمود إرم، وهو أشبه.

(٤) في (د) و(ظ): تنسب.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٩١٨.

(٦) أخرجه مطولاً أحمد (٨١٧١)، والبخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٧.

(٨) في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٧.

(٩) أخرج قولهما الطبري ٢٤/ ٣٦٥.

أهلَ خيامٍ وأعمدة، ينتجعون الغيوثَ، ويطلبون الكلأ، ثم يرجعون إلى منازلهم[١].

وقيل: «ذاتِ العِمادِ» أي: ذاتِ الأبنيةِ المرفوعةِ على العَمَد. وكانوا ينصبون الأعمدةَ، فيبنون عليها القصور. قال ابن زيد: «ذاتِ العِمادِ»: يعني إحكامَ البُنيانِ بالعَمَد[٢]. وفي «الصحاح»: والعماد: الأبنيةُ الرفيعةُ، تُذكَّر وتؤنَّث، قال عمرو بن كلثوم:

ونحن إذا عِمادُ الحيِّ خَرَّتْ على الأَحْفاضِ نَمْنعُ مَن يَلِينا

والواحدةُ عِمادة. وفلانٌ طويلُ العِماد: إذا كان منزلُه مَعْلَماً لزائره[٣]. والأحفاض: جمعُ حَفَضٍ بالتحريك، وهو متاعُ البيتِ إذا هُيِّء ليُحْمَلَ، أي: خَرَّتْ على المتاع. ويروى: عن الأحفاض، أي: خرَّت عن الإبل التي تحملُ خُرْثيَّ البيت[٤].

وقال الضحاك: «ذاتِ العِمادِ» ذات القوَّةِ والشدَّة، مأخوذٌ من قوَّةِ الأعمدة[٥]، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وروى عوفٌ عن خالد الرَّبعيِّ: «إرم ذاتِ العِمادِ» قال: هي دمشق. وهو قولُ عكرمةَ وسعيدٍ المَقْبُرِيِّ. ورواه ابنُ وهبٍ وأشهبُ عن مالك[٦]. وقال محمد بن كعب القُرظيُّ: هي الإسكندرية[٧].

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨، وزاد المسير ٩/ ١١٢.

(٣) الصحاح (عمد)، وبيت عمرو بن كلثوم في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١.

(٤) الصحاح (حفض). والخُرْثي: أثاث البيت، أو أردأ المتاع والغنائم. القاموس (خرث).

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٦، دون قوله: مأخوذ...

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٦٢ عن المقبري، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠-٢٢١، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩١٩ عن مالك، وأخرجه عن عكرمة وخالد الربعي عبد بن حميد، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٧.

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦١. قال النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٢١: فأما أن يكون إرم الإسكندرية =

قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾

الضمير في «مِثْلِها» يرجعُ إلى القبيلة. أي: لم يُخْلَقْ مثلُ القبيلةِ في البلاد: قوةً وشدةً، وعِظَمَ أجسادٍ، وطولَ قامةٍ؛ عن الحسن[١] وغيرِهِ. وفي حرف عبدِ الله: «التي لم يُخْلَقْ مِثْلُهم في البلاد»[٢]. وقيل: يرجع للمدينة. والأوّلُ أَظْهَرُ، وعليه الأكثرُ، حَسْبَ ما ذكرنا.

ومَن جعل «إرم» مدينةً قدَّر حَذْفًا، المعنى: كيف فَعَلَ ربُّك بمدينةِ عادٍ إرم، أو بعادٍ صاحبةِ إرم. وإرمُ على هذا: مؤنَّثةٌ معرفة [فلذلك لم تنصرف][٣].

واختار ابن العربيِّ أنها دِمشق؛ لأنه ليس في البلاد مثلُها. ثم أخذ يَنْعتُها بكَثْرةِ مياهِها وخيراتها. ثم قال: وإنَّ في الإسكندرية لعجائبُ، لو لم يَكُنْ إلّا المنارةُ، فإنَّها مَبْنيةُ الظاهرِ والباطنِ على العَمَد، ولكنْ لها أمثالٌ، فأمَّا دِمشقُ فلا مِثلَ لها. وقد روى مَعْنٌ عن مالكٍ: أنَّ كتاباً وُجِد بالإسكندرية، فلم يُدْرَ ما هو؟ فإذا فيه: أنا شدّاد بن عاد، الذي رفع العماد، بنيتُها حين لا شَيْبَ ولا مَوْت. قال مالك: إنْ كان لتمرُّ بهم مئةُ سنةٍ لا يَرَوْنَ فيها جنازةً[٤].

وذُكر عن ثور بن زيد أنه قال: أنا شدَّاد بن عاد، وأنا الذي رفعتُ العماد، وأنا الذي شَدَدْتُ بذراعي بطنَ الوادي، وأنا الذي كنزتُ كنزاً على سبعةِ أَذْرُعٍ، لا يُخْرِجه إلَّا أمّةُ محمدٍ ﷺ[٥].

ورُوِي أنه كان لعاد ابنان: شدَّاد وشديد، فَملَكا وقَهرا، ثم مات شديدٌ وخلصَ

= أو دمشق فبعيد؛ لقول الله تعالى: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ والحقف ما التوى من الرمل، وليس كذا دمشق ولا الإسكندرية. وردَّ هذا القول أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(١) النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ .

(٢) لم نقف على هذه القراءة عند غير المصنف.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨١٧ ، وما بين حاصرتين منه.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩١٩ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وفتح الباري ٨/ ٧٠٢ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٦٨ ، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٩٢٠ .

الأمرُ لشدَّاد، فملك الدنيا ودانَتْ له ملوكُها؛ فسمع بذِكْرِ الجنة، فقال: أبني مِثْلَها. فبنَى إرَمَ في بعض صحارى عَدَن في ثلاثِ مئةِ سنةٍ، وكان عمرُه تسعَ مئةِ سنةٍ. وهي مدينةٌ عظيمةٌ، قصورُها من الذهب والفضة، وأساطينُها من الزَّبَرْجد والياقوت، وفيها أصنافُ الأشجار والأنهارِ المُطَّرِدة. ولمَّا تمَّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمَّا كان منها على مسيرةِ يومٍ وليلة، بعث الله عليهم صحيةً من السماء فهلكوا[١].

وعن عبد الله بن قِلابة: أنه خرج في طلب إبلٍ له، فوقع عليها، فحمل ما قدرَ عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبرُه معاويةَ فاستحضره، فقصَّ عليه، فبعث إلى كعبٍ فسأله، فقال هي إرَمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجلٌ من المسلمين في زمانك، أحمرُ أشقرُ قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عَقِبه خال، يخرج في طلب إبلٍ له، ثم التفتَ فأبْصرَ ابنَ قِلابة، وقال: هذا واللهِ ذلك الرجل[٢].

وقيل: أي: لم يُخْلق مثلُ أبنيةِ عاد المعروفةِ بالعَمَد. فالكنايةُ للعماد. والعمادُ على هذا: جمع عَمَد[٣].

وقيل: الإرَم: الهلاكُ؛ يقال: أَرِمَ بنو فلان، أي: هلكوا. وقاله ابن عباس[٤]. وقرأ الضحاك: «أَرَمَّ ذاتَ العِمادِ»[٥]، أي: أَهْلَكَهم، فجعلهم رَمِيماً.

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠ . والأساطين: جمع أسطوانة، وهي السارية. القاموس (سطن).

(٢) الكشاف ٤/ ٢٥٠ ، وأخرجه مطولاً جدًا أبو الشيخ في العظمة (٩٩٥) ، وفيه: وعلى عنقه خال، بدل: وعلى عقبه خال. قال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٤ : آثار الوضع عليه لائحة. . وقال ابن كثير: هذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي (يعني عبد الله بن قلابة) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يُقطع بعدم صحته.

(٣) تفسير الرازي ٣١/ ١٦٨ . وأخرج الطبري ٢٤/ ٣٦٨ هذا القول عن ابن زيد. قال ابن كثير: قول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٦٣ .

(٥) المحتسب ٢/ ٣٥٩-٣٦٠ عن ابن عباس والضحاك. وقد سلفت.

قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾

ثمود: هم قومُ صالحٍ. و«جابوا»: قَطَعوا. ومنه: فلانٌ يجوب البلادَ، أي: يقطعُها. وإنَّما سمِّي جيبُ القميصِ لأنه جِيبَ، أي: قطع. قال الشاعرُ وكان قد نَزَلَ على ابنِ الزبيرِ بمكةَ، فكتب له بستِّين وسْقًا يأخذُها بالكوفة، فقال:

راحَتْ رَوَاحًا قَلُوصِي وهي حامدةٌ آلَ الزُّبَيرِ ولم تَعْدِلْ بهم أَحدَا
راحتْ بستِّينَ وَسْقًا في حَقِيبتها ما حمِّلتْ حِمْلَها الأدنَى ولا السَّددا
ما إنْ رأيتُ قَلُوصًا قَبْلَها حَمَلتْ سِتِّين وَسْقًا ولا جابَتْ به بلدا[١]

أي: قَطَعتْ. قال المفسِّرون: أوّلُ مَن نَحتَ الجبالَ والصخورَ والرخامَ: ثمود. فبنَوْا من المدائن ألفاً وسبعَ مئةِ مدينةٍ كلُّها من الحجارة. ومن الدُّورِ والمنازلِ ألفَيْ ألفٍ وسبعَ مئةِ ألف، كلُّها من الحجارة. وقد قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]. وكانوا لقوَّتهم يُخرجون الصخورَ، وينقبون الجبال، ويجعلونها بيوتاً لأنفسهم.

﴿بِالوادي﴾[٢] أي: بوادي القُرَى؛ قاله محمد بنُ إسحاق[٣]. وروى أبو الأشهب عن أبي نَضْرةَ قال: أَتَى رسولُ الله ﷺ في غَزاةِ تَبوك على وادي ثمود، وهو على فَرَسٍ أَشْقَرَ، فقال: «أَسْرِعوا السيرَ، فإنَّكم في وادٍ ملعون»[٤].

---

(١) الأبيات لأبي وجزة السعدي، والخبر مع الأبيات في الكامل للمبرد ١/ ٢٤٣ ، والأغاني ١٢/ ٢٤٤ ، ووقع فيهما في أول الخبر: آل الزبير، بدل: ابن الزبير.

(٢) بإثبات الياء وصلاً: ورش، وفي الحالين: البزي ويعقوب، وأما قنبل فأثبتها وصلاً، واختلف عنه وقفاً، فروي عنه إثباتها وروي عنه حذفها، وحَذفها الباقون في الحالين. ينظر السبعة ص٦٨٣ ، والتيسير ص٢٢٢-٢٢٣ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٢٦٩ ، ووادي القرى: واد بين الشام والمدينة، وهو بين تيماء وخيبر، من أعمال المدينة كثير القرى. معجم البلدان ٤/ ٣٣٨ و٥/ ٣٤٥ .

(٤) النكت والعيون ٦/ ٢٦٩ ، وأخرجه البغوي في الجعديات (٣١٧٧)، والذهبي في السير ٧/ ٢٨١ وقال: هذا مرسل جيد. وأبو الأشهب هو جعفر بن حيان العطاري البصري، وأبو نضرة هو المنذر بن مالك بن قُطَعة العبدي البصري، توفي سنة (١٠٨هـ). التهذيب ٤/ ١٥٤ .

وقيل: الوادي بين جبالٍ، وكانوا ينقُبون في تلك الجبال بيوتاً ودُوراً وأحواضاً. وكلُّ مُنْفَرَجٍ بين جبالٍ أو تلالٍ يكون مسلكاً للسيل ومنفذاً فهو وادٍ.

قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾

أي: الجنودِ والعساكرِ والجموعِ والجيوشِ التي تشدُّ مُلْكَه؛ قاله ابن عباس[١].

وقيل: كان يعذِّب الناس بالأوتاد، ويشدُّهم بها إلى أن يموتوا، تجبُّراً منه وعُتُوًّا. وهكذا فعل بامرأته آسيةَ وماشطةِ ابنته، حَسْبَ ما تقدَّم في آخر سورة التحريم[٢].

وقال عبد الرحمن بن زيد: كانت له صخرةٌ تُرفع بالبكرات، ثم يؤخذُ الإنسان فتُوتَدُ له أوتادُ الحديد، ثم يرسلُ تلك الصخرة عليه فتشدخُه. وقد مضى في سورة «ص»[٣] مِن ذِكْرِ أوتادِه ما فيه كفايةٌ. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ يعني عادًا وثمودًا[٤] وفرعونَ، «طَغَوْا» أي: تمرَّدوا وعَتَوْا وتَجاوَزوا القَدْرَ في الظُّلْم والعُدوان. ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: الجَوْرَ والأذى.

و«الذين طَغَوْا» أَحْسنُ الوجوهِ فيه أن يكون في محلِّ النَّصْبِ على الذَّمِّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مرفوعاً على: هم الذين طَغَوْا، أو مجروراً على وصفِ المذكورِينَ: عادٍ، وثمودَ، وفرعونَ[٥].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧١ .

(٢) ٢١/ ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) عند تفسير الآية (١٢).

(٤) مَن صَرَفه ذهب به إلى الحي؛ لأنه اسم عربي مذكَّر سمي بمذكَّر، ومَن لم يَصْرِفه ذهب به إلى القبيلة، وهي مؤنثة. اللسان (ثمد).

(٥) تفسير الرازي ٣١/١٦٩ .

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ أي: أَفْرَغَ عليهم وأَلْقَى؛ يقال: صبَّ على فلان خِلْعةً، أي: ألقاها عليه وقال النابغة:

فَصبَّ عليه اللهُ أَحْسَنَ صُنْعِه وكان له بينَ البَرِيَّة ناصِرا[١]

﴿سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ أي: نَصِيبَ عذابٍ. ويقال: شِدَّته؛ لأنَّ السوطَ كان عندهم نهاية ما يُعَذَّب به، قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أظهرَ دِينه وصبَّ على الكفَّار سَوْطَ عَذابِ[٢]

وقال الفرَّاء[٣]: هي كلمةٌ تقولُها العربُ لكلِّ نوعٍ من أنواع العذاب. وأصلُ ذلك: أنَّ السَّوْطَ هو عذابُهم الذي يُعذِّبون به، فجرى لكلِّ عذابٍ؛ إذ كان فيه عندهم غايةُ العذاب.

وقيل: معناه: عذاب يخالطُ اللَّحمَ والدَّمَ، مِن قولهم: ساطَه يَسُوطُه سَوْطاً، أي: خَلَطَه، فهو سائطٌ. فالسَّوْطُ: خَلْطُ الشيءِ بعضِه ببعضٍ؛ ومنه سمِّي المِسْواط[٤]. وسَوَّطَهُ، أي: خَلَطه[٥] وأَكْثَرَ ذلك؛ يقال: سَوَّط فلانٌ أمورَه، قال:

فَسُطْها ذَمِيمَ الرأْيِ غيرَ مُوَفَّقٍ فلَسْتَ على تَسْوِيطِها بمُعَانِ[٦]

قال أبو زيد: يقال: أموالُهم سَوِيطةٌ بينهم؛ أي: مختلطةٌ. حكاه عنه يعقوب[٧]. وقال الزجَّاج: أي: جَعَلَ سَوْطَهم[٨] الذي ضَرَبهم به العذابَ. يقال: ساط دابَّته

---

(١) ديوان النابغة الذبياني ص٦٥ برواية: ورَبَّ عليه الله...

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة ١/ ١٨٧ عن أوس بن بجير الطائي برواية:

ألم تر أن الله لا ربَّ غيره يصب على الكفار سوط عذاب

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٦١ .

(٤) المِسْوَط والمِسْواط: ما يخلط به من عصاً ونحوها. القاموس (سوط).

(٥) بعدها في (د) و(م): فهو سائط، والمثبت من باقي النسخ والصحاح (سوط)، والكلام منه.

(٦) العين ٧/ ٢٧٨ ، والصحاح (سوط) والكلام منه، وتهذيب اللغة ١٣/ ٢٤ ، وأساس البلاغة (سوط).

(٧) الصحاح (سوط)، ويعقوب هو ابن السكيت، وكلامه في إصلاح المنطق ص٣٩٠ .

(٨) في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٢ : سوطه.

يَسُوطُها، أي: ضربها بسَوْطه.

وعن عمرو بن عُبيد: كان الحسن إذا أتى على هذه الآيةِ قال: إنَّ عندَ الله أسواطاً كثيرةً، فأخَذَهم بسوطٍ منها[١]. وقال قتادةُ: كلُّ شيءٍ عذَّب الله تعالى به فهو سوطُ عذابٍ[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾

أي: يَرْصُدُ عملَ كلِّ إنسانٍ حتى يُجازِيَه به؛ قاله الحسن وعكرمةُ[٣]. وقيل: أي: عليه طريقُ العبادِ لا يفوتُه أحد[٤]. والمَرْصَد والمِرصاد: الطريق. وقد مضى في سورة براءة[٥]، والحمد لله.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: إنَّ على جهنَّمَ سبعَ قَناطِرَ، يُسأل الإنسان عند أوَّلِ قنطرةٍ عن الإيمان، فإن جاء به تامًّا جازَ إلى القنطرةِ الثانية، ثم يُسألُ عن الصلاة، فإن جاء بها جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة، ثم يُسأل عن صيام شهرِ رمضانَ، فإن جاء به جاز إلى الخامسة، ثم يُسأل عن الحجِّ والعُمْرة، فإن جاء بهما جاز إلى السادسة، ثم يسأل عن صلةِ الرَّحِم، فإن جاء بها جاز إلى السابعة. ثم يُسأل عن المظالم، وينادِي منادٍ: ألَا مَن كانت له مَظْلِمةٌ فلْيأْتِ؛ فيُقتصُّ للناس منه، ويُقتصُّ له من الناس؛ فذلك قولُ عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٦].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥١ .

(٢) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ ، وأخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٨ .

(٣) ذكره عنهما بنحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٢ ، وأخرجه عن الحسن عبد الرزاق ٢/ ٣٧١ ، والطبري ٢٤/ ٣٧٦ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٢ ، والبغوي ٤/ ٤٨٤ عن الكلبي. قال الواحدي: والمعنى لا يفوته شيء من أعمال العباد كما لا يفوت مَن بالمرصاد، وهذا معنى قول الحسن وعكرمة.

(٥) ١٠/ ١١١ .

(٦) ذكره بنحوه السمعاني في تفسيره ٦/ ٢٢١ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٣. وأخرجه بنحوه أيضاً البيهقي من الأسماء والصفات (٩١٥) عن مقاتل بن سليمان قوله .

وقال الثوريُّ: «لبِالمِرصادِ» يعني جهنَّمَ؛ عليها ثلاثُ قناطرَ: قنطرةٌ فيها الرَّحِمُ، وقنطرةٌ فيها الأمانةٌ، وقنطرةٌ فيها الربُّ تبارك وتعالى[١].

قلت: أي: حُكْمُه[٢] وإرادتُه وأمرُه. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: «لبالمِرصادِ»، أي: يَسْمعُ ويَرى[٣].

قلت: هذا قولٌ حسن، يَسْمعُ أقوالَهم ونجواهم، ويَرَى، أي: يعلمُ أعمالَهم وأسرارَهم، فيجازِي كلًّا بعمله. وعن بعض العرب أنه قيل له: أين ربُّك؟ فقال: بالمرصاد.

وعن عمرو بن عُبيد أنه قرأ هذه السورةَ عند المنصور حتى بلغ هذه الآيةَ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ يا أبا جعفر[٤]! قال الزمخشريُّ[٥]: عَرَّض له في هذا النداء، بأنه بعضُ من تُوُعِّد بذلك من الجبابرة، فِللهِ دَرُّه، أيُّ أَسَدِ فِراصٍ[٦] كان بين يديه[٧]؟ يَدُقُّ الظَّلمةَ بإنكاره، ويَقْصَعُ[٨] أهلَ الأهواءِ والبدعِ باحتجاجه!

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني الكافر. قال ابن عباس: يريد عُتبةَ بنَ ربيعةَ وأبا

---

(١) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٥-٣٧٦ .

(٢) في (ظ) و(م): حكمته.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٥ .

(٤) أخرجه مطولاً الخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ١٦٧-١٦٨ .

(٥) في الكشاف ٤/ ٢٥١ .

(٦) في (م) والكشاف: فراس. المثبت من النسخ الخطية. والفِرَاص: الشديد. والفَرَّاس: الأسد. القاموس (فرس) و(فرص).

(٧) في (ي): ثديه، وفي الكشاف: ثوبيه.

(٨) في (ظ): ويقنع، وفي (د) و(م): ويقمع، والمثبت من (ي) والكشاف، ومعنى قصع: صغَّر وحقَّر. القاموس (قصع).

حذيفةَ بنَ المغيرة. وقيل: أُمية بن خلف. وقيل: أبيّ بن خلف[١].

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: امْتَحنه واخْتَبَره بالنعمة. و«ما»: زائدةٌ صِلَةٌ. ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ بِالمال ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾ بما أَوْسَع عليه. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ فيفرحُ بذلك ولا يحمَدُه.

و﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي: امْتَحنه بالفقر واخْتَبَره. ﴿فَقَدَرَ﴾ أي: ضيَّق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ على مقدارِ البُلْغة. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أي: أَوْلاني هَواناً. وهذه صفةُ الكافِرِ الذي لا يؤمنُ بالبعث، إنما الكرامةُ عنده والهوانُ بكثرةِ الحظّ في الدنيا وقِلّتِه. فأمَّا المؤمنُ فالكرامةُ عنده أنْ يُكْرِمَه الله بطاعته وتوفيقِه المؤدِّي إلى حظِّ الآخرة[٢]، وإنْ وسَّع عليه في الدنيا حَمِدَه وشَكَره.

قلت: الآيتان صفةُ كلِّ كافرٍ. وكثيرٌ من المسلمين يظنُّ أنَّ ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله، وربَّما يقولُ بجهله: ولو لم أَسْتَحقَّ هذا لم يُعْطِنِيه الله. وكذا إنْ قَتَّر عليه يظنُّ أنَّ ذلك لهوانه على الله.

وقراءةُ العامَّةِ: «فَقَدر» مخففَّةَ الدال. وقرأ ابنُ عامرٍ مشدَّداً[٣]، وهما لغتان. والاختيارُ التخفيفُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧]. قال أبو عمرو: و«قَدَر» أي: قَتَر. و«قدَّر» مشدَّدا: هو أنْ يعطيه ما يَكْفِيه. ولو فعل به ذلك ما قال: «ربِّي أهانَن».

وقرأ أهلُ الحَرَمين وأبو عمرو: «ربِّيَ» بفتح الياء في الموضعين. وأَسْكَن الباقون[٤].

وأَثْبتَ البَزِّيُّ وابنُ مُحَيْصِنٍ ويعقوبُ الياءَ من «أكرمنِ»، و«أهاننِ» في الحالين[٥]؛

---

(١) ذكر هذه الأقوال الواحدي في الوسيط ٤/ ٤٨٣، وابن الجوزي في زاد المسير ٩/ ١١٨.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢٣.

(٣) ذكرها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٨٢ وقال: ولم يذكر ابن مجاهد هذا الحرف في كتابه. ولم ترد هذه القراءة في مطبوع التيسير. وهي في النشر ٢/ ٤٠٠ عن ابن عامر وأبي جعفر.

(٤) وهم الكوفيون وابن عامر. التيسير ص٢٢٢.

(٥) السبعة ص٦٨٤، والتيسر ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

لأنها اسمٌ فلا تُحذَف. وأثبتها المدنيُّون في الوصل دون الوقف، اتِّباعاً للمصحف[١]. وخَيَّر أبو عمرو في إثباتها في الوصل أو حَذْفِها؛ لأنَّها رأسُ آيةٍ، وحَذَفها في الوقف لخطِّ المصحف. الباقون بحَذْفِها لأنَّها وقعت في الموضعين بغير ياءٍ، والسُّنةُ ألَّا يُخالَفَ خطُّ المصحف؛ لأنه إجماعُ الصحابة.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ردٌّ، أي: ليس الأمرُ كما يُظَنُّ، فليس الغِنَى لفَضْلِه، ولا الفقرُ لهوانه، وإنَّما الفقرُ والغنى من تقديري وقضائي. وقال الفرَّاء[٢]: «كَلَّا» في هذا الموضع بمعنى: لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا، ولكنْ يحمدُ الله عزَّ وجلَّ على الغنى والفقر. وفي الحديث: «يقولُ الله عزَّ وجلَّ: كلَّا إنِّي لا أُكْرِم مَن أَكْرمتُ بكَثْرةِ الدنيا، ولا أُهينُ مَن أَهَنْتُ بقلَّتها، إنَّما أُكْرِمُ مَن أَكْرمتُ بطاعتي، وأُهينُ مَن أَهَنْتُ بمعصيتي»[٣].

قوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ إخبارٌ عن ما كانوا يصنعونه من مَنْعِ اليتيمِ الميراثَ، وأَكْلِ مالِه إسْرافاً وبِدارًا أَنْ يَكْبَروا. وقرأ أبو عمرو ويعقوبُ: «يُكْرِمون»، و«يَحُضُّون» و«يأكلون»، و«يُحِبُّونَ» بالياء[٤]؛ لأنَّه تقدَّم ذِكْرُ الإنسانِ، والمرادُ به الجنسُ، فعبَّر عنه بلفظِ الجمع. الباقون بالتاء في الأربعة، على الخطاب والمواجهة، كأنه قال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

وتركُ إكرامِ اليتيمِ بدَفْعِه عن حقِّه وأَكْلِ ماله، كما ذَكَرْنا. قال مقاتل: نزلت في قُدامةَ بنِ مظعون، وكان يتيماً في حِجْرِ أُميةَ بنِ خَلَف[٥].

---

(١) أثبتها في الوصل من العشرة نافع وأبو جعفر.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٢٦١ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٧٧ عن قتادة قوله.

(٤) السبعة ص٦٨٥ ، والتيسير ص٢٢٢ ، والنشر ٢/ ٤٠٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ٤٨٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٥ ، وتفسير الرازي ٣١/ ١٧٢ .

﴿ولا يَحُضُّونَ[(١)] على طعامِ المسكينِ﴾ أي: لا يأمرون أهليهم بإطعام مسكينٍ يَجيئُهم. وقرأ الكوفيون: ﴿وَلَا تَحَٰضُّونَ﴾ بفتح التاءِ والحاءِ والألف[(٢)]، أي: يَحُضُّ بعضُهم بعضًا، وأصلُه تتحاضُّون، فحذف إحدى التاءينِ لدلالةِ الكلامِ عليها. وهو اختيارُ أبي عُبيد.

ورُوِي عن إبراهيمَ، والشَّيْزَرِيِّ عن الكسائي، والسُّلَمِيِّ: «تُحَاضُّون» بضمِّ التاء[(٣)]، وهو تُفاعِلون من الحضِّ، وهو الحثُّ.

﴿ويأكُلون التُّراثَ﴾ أي: ميراثَ اليتامَى. وأصلُه: الوُرَاث من وَرِثْتُ، فأَبْدَلوا الواوَ تاءً، كما قالوا في تُجاه وتُخَمة وتُكَأَة وتُؤَدة ونحوِ ذلك[(٤)]. وقد تقدَّم[(٥)].

﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ أي: شديداً؛ قاله السُّدِّيّ[(٦)]. وقيل «لَمًّا»: جمعاً، من قولهم: لَمَمْتُ الطعامَ لمًّا: إذا أكلته جمعًا؛ قاله الحسنُ وأبو عُبيدة[(٧)]. وأصلُ اللَّمِّ في كلام العرب: الجمع؛ يقال: لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّه لَمًّا: جمعته، ومنه يقال: لَمَّ الله شَعَثَه، أي: جَمع ما تفرَّقَ من أموره، قال النابغة:

ولَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه ... علَى شَعَثٍ أيُّ الرجَالِ المُهَذَّبُ[(٨)]

ومنه قولُهم: إنَّ دارك لَمُومَةٌ، أي: تَلُمُّ الناسَ وتَرُبُّهم وتَجمعُهم. وقال المِرناقُ

(١) في (م): تحضون، وهي قراءة نافع وابن كثير وابن عامر من السبعة.

(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم من السبعة. السبعة ص٦٨٥ ، والتيسير ص٢٢٢ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٠ ، والبحر ٨/ ٤٧١ . والشيزري هو عيسى بن سليمان.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/٣٢٣ .

(٥) ينظر ٥/ ٨٨ ، وكذلك تفسر الآية (٣١) من سورة الكهف.

(٦) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ ، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٣٨٠ عن ابن عباس وقتادة والضحاك.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٢٧٠ عن الحسن، وقول أبي عبيدة بنحوه في مجاز القرآن ٢/ ٢٩٨ .

(٨) ديوان النابغة ص١٨ ، والخزانة ٩/ ٤٦٧ ، وجمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٨٨ . قال البغدادي: يقول: أي الرجال يكون مبرأً من العيوب؟ فإن قَطَعْتَ إخوانك بذنب لم يبق لك أخ. وقوله: أي الرجال المهذب، قال العسكري: يضرب مثلاً للرجل يُعرف بالإصابة في الأمور، وتكون منه السَّقْطة.

الطائيُّ يمدحُ علقمةَ بنَ سيف:

لأحبَّني حُبَّ الصبيِّ ولمَّني لَمَّ الهَدِيِّ إلى الكريمِ الماجِدِ(١)

وقال الليث: اللمُّ: الجمعُ الشديد، ومنه: حَجَرٌ مَلْمومٌ، وكتِيبةٌ مَلْمومةٌ. والآكِلُ يَلُمُّ الثَّريدَ، فيجمعهُ لُقَماً ثم يأكلُه(٢).

وقال مجاهد: يَسفُّه سَفًّا. وقال الحسن: يأكلُ نصيبَه ونصيبَ غيرِه(٣)؛ قال الحُطيئةُ:

إذا كانَ لَمّاً يُتْبِعُ الذمَّ ربَّه فلا قدَّسَ الرحمنُ تلك الطواحِنا

يعني أنَّهم يجمعون في أَكْلِهم بين نَصِيبِهم [من الميراث] ونصيبِ غيرِهم(٤).

وقال ابن زيد: هو أنَّه إذا أكل مالَه أَلَمَّ بمالِ غيرِه فأَكَلَه، ولا يفكِّر فيما أَكَلَ من خبيثٍ وطيِّبٍ(٥). قال: وكان أهلُ الشِّركِ لا يورِّثون النساءَ ولا الصبيان، بل يأكلون ميراثَهم مع مِيراثِهم، وتُراثَهم مع تُراثِهم(٦).

وقيل: يأكلون ما جَمَعه الميتُ من الظَّلَمةِ(٧) وهو عالمٌ بذلك، فَيلُمُّ في الأكل بين

---

(١) الصحاح (لمم) والكلام منه، والحيوان ٣/ ٤٦٨، ومعجم الشعراء للمرزباني ص٤٤٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٩١، وللتبريزي ٤/ ٧٠. ووقع في المصادر عدا الصحاح: ورمَّني رمَّ الهديِّ، قال التبريزي: رمَّني: أصلح حالي. رمَّ الهديِّ، الهديُّ: العروس. وقال المرزوقي: أي: أحبني كما يُحَبُّ الصبي، وأصلح من أموري ما يُصْلَح من شأن العروس إذا زفت إلى الموسر الغني. والمرناق هو فدكي بن أعبد كما ذكر الجوهري، وكان قد سرقت إبل له، فردها عليه علقمة بن سيف. وعلقمة بن سيف من تغلب، وكان شريفاً رئيساً في الجاهلية، ذكره عمرو بن كلثوم في معلقته، ويقال: إنه هو الذي أنزل بني تغلب الجزيرة. الاشتقاق ص٣٣٧، وشرح المعلقات للتبريزي ص٢٧٦، وشرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ٧١-٧٢.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) أخرج القولين الطبري ٢٤/ ٣٨٠.

(٤) الكشاف ٤/ ٢٥٣، وما سلف بين حاصرتين منه، ولم نقف على البيت في ديوان الحطيئة.

(٥) في (م): ولا يفكر أكل من خبيث أو طيب.

(٦) أخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٣٨١.

(٧) في (م) الظلم، والمثبت من النسخ الخطية والكشاف ٤/ ٢٥٣، والكلام منه.

حَرامِه وحَلَاله.

ويجوزُ أنْ يذمَّ الوارثَ الذي ظَفِر بالمال سَهْلاً مَهْلاً، مِن غيرِ أنْ يَعرَقَ فيه جبينُه، فَيُسْرِفُ في إنفاقه، ويأكلُه أكلاً واسعاً، جامعاً بين المُشتَهَيات[١] من الأطعمة والأشربة والفواكه، كما يفعل الوُرَّاثُ البطَّالون.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا، حلالَه وحرامَه. والجمُّ: الكثير. يقال: جمَّ الشيءُ يُجُمُّ جُموماً، فهو جَمٌّ وجامٌّ. ومنه جَمَّ الماءُ في الحوض: إذا اجتمع وكَثُر؛ وقال الشاعر:

إنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جمّا وأيُّ عبْدٍ لكَ لا أَلَمّا[٢]

والجَمَّةُ: المكانُ الذي يجتمعُ فيه ماؤه. والجَمومُ: البئرُ الكثيرةُ الماءِ. والجُمومُ بالضمِّ المصدرُ؛ يقال: جَمَّ الماءُ يجم[٣] جموماً: إذا كثُر في البئر واجتمع، بعد ما استُقي ما فيها.

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ما هكذا ينبغي أن يكونَ الأمر. فهو ردٌّ لانْكِبابِهم على الدنيا، وجَمْعِهم لها؛ فإنَّ مَن فَعَل ذلك يندمُ يومَ تُدَكُّ الأرضُ، ولا ينفعُه النَّدمُ. والدَّكُّ: الكَسْرُ والدقُّ، وقد تقدَّم[٤]. أي: زُلْزِلتِ الأرضُ، وحُرِّكتْ تحريكاً بعدَ تحريكٍ.

وقال الزجَّاج[٥]: أي: زُلزلتْ فَدَكَّ بعضُها بعضاً. وقال المبرِّد: أي: أُلصِقَتْ وذَهبَ ارتفاعُها؛ يقال ناقةٌ: دَكَّاءُ، أي: لا سنامَ لها، والجمعُ دُكٌّ. وقد مضى في

---

(١) في النسخ الخطية: المشتبهات، والمثبت من (م) والكشاف.

(٢) البيت لأمية بن أبي الصلت أو لأبي خراش، وقد سلف عند تفسر الآية (٣٢) من سورة النجم.

(٣) بالكسر والضم في الجيم. مختار الصحاح (جمم)، والكلام من الصحاح (جمم).

(٤) ينظر ٩/ ٣٢٥ ، وتفسير الآية (٩٨) من سورة الكهف، والآية (١٤) من سورة الحاقة.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٣٢٣ .

سورة الأعرافِ والحاقَّةِ القولُ في هذا[١]. ويقولون: دُكَّ الشيءُ، أي: هُدِمَ. قال:

هـل غـيـرُ غـارٍ دَكَّ غـاراً فـانـهـدَمْ[٢]

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي: مرةً بعد مرةٍ، زُلْزِلتْ فكسَّر بعضُها بعضًا، فتكسَّر كلُّ شيءٍ على ظَهْرِها. وقيل: دُكَّتْ جبالُها وأَنْشازُها[٣] حتى اسْتَوَتْ. وقيل: «دُكَّتْ» أي: استَوَتْ في الانْفِراش، فذهب دُورُها وقُصورُها وجبالُها وسائرُ أبنيتها. ومنه سمِّي الدُّكَّان[٤]؛ لاستوائه في الانفراش. والدكُّ: حَطُّ المرتفع من الأرض بالبَسْطِ؛ وهو معنى قولِ ابنِ مسعودٍ وابنِ عباس: تُمدُّ الأرضُ مَدَّ الأديم[٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي أمرُه وقضاؤُه؛ قاله الحسن[٦]. وهو من باب حَذْفِ المضافِ.

وقيل: أي: جاءهم الربُّ بالآياتِ العظيمة، وهو كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي: بظُللٍ.

وقيل: جُعل مجيءُ الآياتِ مجيئاً له؛ تفخيماً لشأن تلك الآياتِ، ومنه قولُه[٧] تعالى في الحديث: «يا ابنَ آدمَ، مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، واسْتَسقَيتُك فلم تَسْقِني، واستطعمتُكَ فلم تُطْعِمْني»[٨].

---

(١) ٩/ ٣٢٥ ، وتفسير الآية (١٤) من سورة الحاقة.

(٢) سلف عند تفسير الآية (٩٨) من سورة الكهف.

(٣) جمع نَشَز، وهو المكان المرتفع. الصحاح (نشز).

(٤) الدكان: المِصْطَبة. المعجم الوسيط (دكن).

(٥) أخرجه عن ابن عباس مطولاً الطبري ٢٤/ ٣٨٤-٣٨٦ ، و سلف ١٢/ ١٦٨ و١٩/ ٢٧٠ .

(٦) الوسيط ٤/ ٤٨٤ .

(٧) في (ظ): وهي كقوله.

(٨) أخرجه مطولاً مسلم (٢٥٦٩).

وقيل: «وجاءَ رَبُّك» أي: زالتِ الشُّبَهُ ذلك اليومَ، وصارتِ المعارفُ ضروريةً، كما تزولُ الشُّبَه والشكُّ عند مجيءِ الشيءِ الذي كان يُشَكُّ فيه.

وقال أهلُ الإشارةِ: ظَهَرتْ قدرتُه واسْتَوْلتْ[1]، والله جلَّ ثناؤه لا يُوْصَفُ بالتحوُّلِ من مكانٍ إلى مكان، وأنَّى له التحوُّلُ والانتقالُ، ولا مكانَ له ولا أوان، ولا يجري عليه وقتٌ ولازمان؛ لأنَّ في جَرَيانِ الوقتِ على الشيء فَوْتُ الأوقات، ومَن فاته شيءٌ فهو عاجِز.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: الملائكةُ ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفوفا ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾: قال ابن مسعود ومقاتل: تقادُ جهنَّمُ بسبعين ألفَ زمامٍ، كلُّ زمامٍ بيدِ سبعين ألفَ مَلَكٍ، لها تغيُّظ وزفير، حتى تنصبَّ عن يسار العرش[2]. وفي «صحيح» مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بجهنَّم يومئذٍ، لها سبعون ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ يَجرُّونها»[3].

وقال أبو سعيد الخُدرِيُّ: لمَّا نزلت: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ تَغيَّر لونُ رسولِ الله ﷺ، وعُرِفَ في وجهه، حتى اشتدَّ على أصحابه، ثم قال: «أقرأني جبريلُ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾. قال عليٌّ ﷺ: قلتُ: يا رسول الله، كيف يُجاءُ بها؟ قال: «يؤتَى بها تقادُ بسبعين ألفَ زمامٍ، يقودُ بكلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَك، فَتَشْرُدُ شَرْدَةً لو تُرِكَتْ لأَحْرقَتْ أهلَ الجمعِ، ثم تَعْرِضُ لي جهنَّم فتقول: مالي ولك يا مُحمد، إنَّ الله قد حرَّم لحمك عَلَيَّ» فلا يَبْقَى أحدٌ إلَّا قال: نَفْسي نَفْسي! إلَّا محمدٌ ﷺ فإنه يقول: ربِّ أمتي! ربِّ آمتي![4]

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يتَّعِظُ ويتوبُ. وهو الكافرُ، أو مَن

---

(١) في النسخ الخطية: واستوت.

(٢) تفسير البغوي ٤/٤٨٦ .

(٣) صحيح مسلم (٢٨٤٢)، سلف ٢١/٣٨٦ .

(٤) خبر علي وخبر أبي سعيد أخرجهما الواحدي في الوسيط ٤/٤٥٨-٤٥٩ في خبر واحد.

هِمَّته معظَم الدنيا. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: ومِن أين له الاتّعاظُ والتوبةُ وقد فرَّط فيها في الدنيا.

ويقال: أي: ومِن أين له مَنْفَعةُ الذِّكرى. فلا بدَّ من تقديرِ حَذْفِ المضافِ، وإلَّا فبَيْنَ «يَوْمَئذٍ يتذكَّرُ» وبينَ «وأنَّى له الذكرى» تَنَافٍ؛ قاله الزمخشريّ[1].

قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾

أي: في حياتي. فاللامُ بمعنى في. وقيل: أي: قدَّمتُ عملاً صالحاً لحياتي، أي: لحياةٍ لا موتَ فيها. وقيل: حياةُ أهلِ النارِ ليست هنيئةً، فكأنهم لا حياةَ لهم، فالمعنى: ياليتني قدَّمتُ من الخير لنجاتي من النار، فأكون فيمَن له حياةٌ هنيئةٌ.

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: لا يعذِّبُ كعذابِ الله أَحَدٌ، ولا يُوْثِقُ كوَثاقِه أحدٌ. والكنايةُ ترجعُ إلى الله تعالى. وهو قولُ ابنِ عباسٍ والحسن[2]. وقرأ الكسائيُّ: «لا يُعَذَّبُ» «ولا يُوثَقُ» بفتح الذَّالِ والثاء[3]، أي: لا يعذَّب أحدٌ في الدنيا كعذابِ اللهِ الكافرَ يَوْمَئذٍ، ولا يوثَقُ كما يوثَق الكافر[4]. والمرادُ إبليسُ؛ لأنَّ الدليل قام على أنه أشدُّ الناسِ عذاباً؛ لأَجْلِ إجرامِه، فأطلق الكلام لأَجْلِ ما صَحِبَه من التفسير.

وقيل: إنه أميةُ بنُ خلف؛ حكاه الفرَّاء[5]. يعني أنه لا يعذَّبُ كعذاب هذا الكافرِ

---

(١) في الكشاف ٤/ ٢٥٣.

(٢) أخرجه عن ابن عباس ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٣) السبعة ص٦٨٥، والتيسير ص٢٢٢.

(٤) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩٣، وذكر ابن الجوزي ٩/ ١٢٢ أن هذه القراءة تختص بالآخرة، وأن القراءة الأولى تختص بالدنيا. ومثله قال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٢٧٢.

(٥) كذا ذكر المصنف، والذي في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٢: وقد وجهه بعضهم على أنه رجل مسمًّى لا يعذَّبُ كعذابه أحد. فلم يعيِّنه الفراء، وقال البغوي ٤/ ٤٨٦: هو أمية بن خلف.

المعيَّنِ أحدٌ، ولا يوثَقُ بالسلاسلِ والأغلالِ كَوثاقه أحدٌ؛ لِتَناهيه في كُفْرِه وعنادِه.

وقيل: أي: لا يعذَّبُ مَكانَه أحدٌ، فلا يؤخَذُ منه فِداءٌ.

والعذابُ بمعنى التعذيبِ، والوَثاقُ بمعنى الإيثاقِ. ومنه قولُ الشاعر:

وبَعْدَ عَطائِكَ المئةَ الرِّتاعا[1]

وقيل: لا يعذَّبُ أحدٌ ليس بكافرٍ عذابَ الكافرِ.

واختار أبو عبيد وأبو حاتم فتحَ الذَّالِ والثاء. وتكونُ الهاء ضميرَ الكافر؛ لأنَّ ذلك معروفٌ: أنه لا يعذِّب أحدٌ كعذاب الله. وقد روى أبو قِلابةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ بفتح الذَّال والثاء[2]. وروي أنَّ أبا عمرو رجع إلى قراءة النبيِّ ﷺ[3].

وقال أبو عليٍّ[4]: يجوزُ أن يكون الضميرُ للكافر على قراءة الجماعة، أي: لا يعذِّبُ أحدٌ أحداً مثلَ تعذيبِ هذا الكافر؛ فتكونُ الهاءُ للكافر. والمرادُ بـ «أحدٌ» الملائكةُ الذين يتولَّوْن تعذيبَ أهلِ النار.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ لَمَّا ذَكَر حالَ مَن كانت هِمَّتُه الدنيا، فاتَّهم اللهَ في إغنائه وإفقاره، ذَكَر حالَ مَن اطمأنَّتْ نفسُه إلى الله تعالى، فسلَّم لأمره، واتَّكَلَ عليه. وقيل: هو من قولِ الملائكةِ لأولياء الله عزَّ وجلَّ. والنفسُ المطمئنةُ: الساكنةُ المُؤْقِنةُ؛ أيقنتْ أنَّ الله ربُّها، فأَخْبتَتْ لذلك؛ قاله مجاهدٌ وغيره.

---

(١) وصدره: أكُفراً بعد ردِّ الموت عني، والبيت للقطامي، وهو في ديوانه ص٣٧، وسلف ٥/ ١٠٥، والكلام من تفسير الرازي٣١/ ١٧٧.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٦٩١)، وأبو داود (٣٩٩٦) و(٣٩٩٧).

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٣.

(٤) في الحجة ٦/ ٤١٢.

وقال ابن عباس: أي: المطمئنةُ بثوابِ الله. وعنه: المؤمنةُ. وقال الحسن: المؤمنةُ الموقنةُ.

وعن مجاهد أيضاً: الراضيةُ بقضاء الله، التي علمت أنَّ ما أخطأها لم يكن لِيُصيبَها، وأنَّ ما أصابها لم يكن لِيُخطِئَها. وقال مقاتل: الآمنةُ من عذاب الله[١]. وفي حرفِ أُبيّ بن كعب: «يا أيتها النفسُ الآمنةُ المطمئنةُ» [٢].

وقيل: التي عمِلت على يقينٍ بما وَعَدَ الله في كتابه.

وقال ابن كَيسان: المطمئنةُ هنا: المُخْلِصةُ.

وقال ابن عطاء: العارفةُ التي لا تصبرُ عنه طرفةَ عينٍ.

وقيل: المطمئنةُ بذِكْرِ الله تعالى، بيانُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقيل: المطمئنةُ بالإيمان، المُصدِّقةُ بالبعث والثواب.

وقال ابن زيد: المطمئنةُ لأنها بشِّرت بالجنة عند الموتِ، وعند البعثِ، ويومَ الجمع[٣].

وروى عبد الله بن بُرَيدة عن أبيه قال: يعني نفسَ حمزةَ[٤]. والصحيحُ أنَّها عامةٌ في كلِّ نفسٍ مؤمنٍ مخلصٍ طائع.

قال الحسن البصريُّ: إنَّ الله تعالى إذا أراد أن يقبضَ رُوحَ عَبْدِه المؤمِن، اطمأنَّت النفسُ إلى الله تعالى، واطمأنَّ الله إليها[٥].

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩٣-٣٩٥، والوسيط ٤/ ٤٨٧، والنكت والعيون ٦/ ٢٧٢، وتفسير البغوي ٤/ ٤٨٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٣٩٦.

(٤) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٢٧٢.

وقال عمرو بن العاص: إذا تُوُفِّيَ المؤمنُ أرسلَ الله إليه مَلَكين، وأرسل معهما تُحْفةً من الجنة، فيقولان لها: اخرجي أيتها النفُس المطمئنةُ راضية مَرْضِيَّةً ومَرْضيًّا عنكِ، اخرُجي إلى رَوْحٍ وريَحْانٍ وربٍّ راضٍ غيرِ غضبان، فتخرجُ كأطيبِ ريحِ المسكِ وَجَدَ أحدٌ من أَنْفِه على ظَهْرِ الأرض. وذَكَر الحديث[١].

وقال سعيد بن جبير[٢]: قرأ رجلٌ عند النبيِّ ﷺ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، فقال أبو بكر: ما أَحْسنَ هذا يا رسولَ الله! فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المَلَكَ سيقولُها لك يا أبا بكر [عند الموت][٣]».

وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائرٌ لم يُرَ على خِلْقَتِه طائرٌ قطُّ، فدخل نَعْشَه، ثم لم يُرَ خارجًا منه، فلمَّا دُفِنَ تُلِيَتْ هذه الآيةُ على شَفِيرِ القبر ـ لا يُدْرَى مَن تَلَاها ـ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٤].

وروى الضحاك أنها نزلت في عثمان بنِ عفان ﷺ حين وقف بئرَ رُومَةَ[٥].

وقيل: نزلت في خُبَيب بن عديٍّ الذي صَلَبه أهلُ مكةَ، وجعلوا وَجْهَه إلى المدينة، فحوَّل الله وجهَه نحو القِبلة[٦]. والله أعلم.

ومعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى صاحبك وجسدِك؛ قاله ابنُ عباس وعِكرمةُ وعطاء.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/٤٨٧، والبغوي ٤/٤٨٦ عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ وفيهما: ... فتخرج كأطيب ريح مسك وجده أحد في أنفه. وأخرج نحوه مطولاً أحمد (٨٧٦٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، و (١٨٥٣٤) من حديث البراء ﷺ.

(٢) في (م): زايد، وفي النسخ الخطية: زيد، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/٣٩٦، وأبو نعيم في الحلية ٤/٢٨٣، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير عند هذه الآية، وما بين حاصرتين من هذه المصادر. قال ابن كثير: وهذا مرسل حسن.

(٤) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٨٧٩)، والطبراني في الكبير (١٠٥٨١)، والذهبي في السير ٣/٣٥٨ وقال: هذه قضية متواترة.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠ من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس.

(٦) الكشاف ٤/ ٢٥٤.

واختاره الطَّبَريُّ[١]، ودليلُه قراءةُ ابنِ عباسٍ: «فاذْخُلي في عَبْدي» على التوحيد[٢]، فيأمرُ الله تعالى الأرواحَ غداً أنْ ترجع إلى الأجساد. وقرأ ابن مسعود: «في جَسَدِ عبدي»[٣].

وقال الحسن: ارجعي إلى ثوابِ ربِّكِ وكرامتِه[٤].

وقال أبو صالح: المعنى: ارجعي إلى الله. وهذا عند الموت[٥].

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي: في أجسادِ عبادي، دليلهُ قراءةُ ابنِ عباسٍ وابن مسعود. قال ابن عباس: هذا يومَ القيامة. وقاله الضحَّاك[٦].

والجمهورُ على أنَّ الجنةَ هي دارُ الخلودِ التي هي مَسْكَنُ الأبرارِ، ودارُ الصالحين والأخيار. ومعنى «في عبادي» أي: في الصالحين من عبادي، كما قال: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩] وقال الأخفش: «في عبادي» أي: في حزبي. والمعنى واحدٌ، أي: انْتَظِمي في سِلْكِهم ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم.

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/٣٩٧.

(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣، والمحتسب ٢/ ٣٦٠.

(٣) الكشاف ٤/ ٢٥٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/٤٨٧، وزاد المسير ٩/ ١٢٤.

(٥) أخرجه الطبري ٢٤/٣٩٧.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢٤/٣٩٧.

سُورَةُ الفَجرِ

مكيَّةٌ، وآيُها تِسعٌ وعِشرونَ[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أَقْسَمَ بالصُّبحِ، أو فَلَقِهِ[2]؛ كقولِه: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، أو: بصَلاتِه.

(٢) ـ ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾: عشرِ ذي الحجَّةِ، ولذلك فُسِّرَ الفَجرُ بفجرِ عرَفَةَ أو النَّحرِ، أو عشرِ رمضانَ الأخيرِ، وتَنكيرُها للتَّعظيمِ.

وقُرِئَ: (وليالِ عشرٍ) بالإضافةِ[3] على أنَّ المرادَ بالعشرِ الأيامُ.

(٣) ـ ﴿والشَّفعِ والوِتْرِ﴾: والأشياءِ كلِّها شَفْعِها ووترِها، أو: والخَلْقِ[4] ـ لقولِه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] ـ والخالقِ لأنَّه فردٌ.

---

(١) قال الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ٢٧٣): هي تسع وعشرون آية في البصري وثلاثون في الكوفي والشامي واثنتان وثلاثون في المدنيين والمكي.

(٢) قال الشهاب: «أو فلقه» بفتحتين، أي: ضوئه الممتدِّ كالعمودِ، وجوَّزَ بعضهم سكون اللامِ كالشَّقِّ لفظًا ومعنًى، والأَوَّلُ أولى.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٣) عن ابن عامر، و«الكشاف» (٩/ ٥٧٣) عن ابن عباس.

(٤) قوله «أو والخلق» عطفٌ على «والأشياءِ» كما نبَّه عليه الأنصاري والخفاجي في «حاشيتيهما».

ومَن فسَّرَهما بالعَناصرِ والأفلاكِ، أو البروجِ والسَّياراتِ، أو شَفْعِ الصَّلوات ووِترِها، أو يومَي النَّحرِ وعرفةَ ـ وقد رُوِيَ مرفوعًا(١) ـ، أو بغيرِها = فلعلَّهُ أفردَ بالذِّكرِ مِن أنواعِ المدلولِ ما رآه أظهرَ دلالةً على التَّوحيدِ، أو مَدخلًا في الدِّينِ، أو مُناسبةً لِمَا قبلَهُما(٢)، أو أكثرَ مَنفعَةً مُوجِبَةً للشُّكرِ.

وقرأ غيرُ حمزةَ والكسائيِّ: ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ بفتح الواو(٣)، وهما لُغتانِ كالحِبْرِ والحَبْرِ.

(٤) ـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾: إذا يمضي، كقولِه: ﴿والَّيْلِ إِذَا دَبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، والتَّقييدُ بذلك لِمَا في التَّعاقُبِ مِن قوَّةِ الدلالةِ على كمالِ القُدرَةِ ووُفورِ النِّعمَةِ.

أو: يُسْرَى فيهِ؛ مِن قولِهم: صَلَّى المُقامُ(٤)، وحذفُ الياءِ للاكتفاءِ بالكسرةِ تخفيفًا.

وقد خصَّه نافعٌ وأبو عَمرٍو بالوقفِ لِمُراعاةِ الفواصلِ، ولم يَحْذِفْها ابنُ كثيرٍ ويَعقوبُ أصلًا(٥).

وقُرِئَ: (يسرٍ) بالتَّنوينِ(٦) المُبدَلِ مِن حرفِ الإطلاقِ.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٥١١)، والبزار (٢٢٨٦ ـ كشف الأستار)، والنسائي في «الكبرى» (٤٠٨٦) و(١١٦٠٧)، والحاكم في «المستدرك» (٧٥١٧). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٧): رواه البزار وأحمد، ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة.

(٢) قوله: «أو مدخلًا» معطوف على «دلالة» وهو ناظر لتفسيره بالصلاة، وقوله: «أو مناسبة» معطوف على «دلالة» وهو ناظر لتفسيره باليومين المناسب لليال، وضمير «قبلهما» مثنًّى للشفع والوتر. قاله الشهاب.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢).

(٤) أي: صُلِّيَ فيه.

(٥) أثبت الياء بعد الراء وصلًا نافع وأبو عمرو، وأثبتها في الحالين ابن كثير ويعقوبُ، وحذفها الباقون مطلقاً. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٣)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢)، و«النشر» (٢/ ٤٠٠).

(٦) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٣) عن أبي الدينار الأعرابي.

(٥) ـ ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ القسم أو المُقسَمِ به ﴿قَسَمٌ﴾: حَلِفٌ أو محلوفٌ بهِ ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ يعتبرُهُ ويُؤكِّدُ به ما يُريدُ تَحقيقَهُ، والحِجْرُ: العَقْلُ، سُمِّيَ بهِ لأنَّه يَحْجرُ عمَّا لا ينبَغِي، كما سُمِّيَ عَقْلًا ونُهْيَةً وحَصَاةً مِن الإحصاءِ وهو الضَّبطُ.

والمُقْسَمُ عليهِ محذوفٌ وهو: لَتُعَذَّبُنَّ، يدلُّ عليهِ قولُه:

(٦) ـ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني: أولادَ عادِ بنِ عوصِ بنِ إِرَمَ بنِ سَام بنِ نوحٍ، قومَ هودٍ، سُمُّوا باسمِ أبيهِم كمَا سُمِّيَ بنو هاشمٍ باسمِه.

(٧) ـ ﴿إِرَمَ﴾ عطفُ بيانٍ لـ(عادٍ) على تَقديرِ مُضافٍ؛ أي: سِبطِ إِرَمَ، أو أهلِ إِرَمَ ـ إن صحَّ أنَّه اسمُ بلدَتِهم ـ، وقيل: سُمِّيَ أوائلُهم ـ وهم عادٌ الأُولى ـ باسمِ جَدِّهِم، ومُنِعَ صرفُه للعَلَميَّةِ والتَّأنيثِ.

﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾: ذاتِ البناءِ الرَّفيعِ، أو القُدودِ الطِّوالِ، أو الرِّفعةِ والثَّباتِ.

وقيل: كانَ لعادٍ ابنانِ: شَدَّادٌ وشَدِيدٌ، فمَلكَا وقهَرَا، ثمَّ ماتَ شَدِيدٌ فخَلَصَ الأمرُ لشَدَّادٍ ومَلَكَ المعمورةَ ودانَتْ له مُلوكُها، فسَمِعَ بذكرِ الجنَّةِ فبنى على مثالها في بعضِ صَحارى عَدَن جنَّةً وسمَّاها إِرَمَ، فلمَّا تَمَّ سارَ إليهَا بأَهلِه، فلَمَّا كان مِنْها على مسيرةِ يومٍ وليلَةٍ بعثَ اللهُ عليهِم صيحَةً مِن السَّماءِ فهَلكُوا، وعَن عبدِ اللهِ بن قِلَابَةَ: أنَّه خرجَ في طَلَبِ إبلِهِ فوقعَ عليهَا[1].

---

(١) هذا مختصر لخبر طويل جدًّا رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٣٢٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٩٣)، وأبو حفص النسفي في «التيسير في التفسير» عند هذه الآية، وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص: ١٨٤): آثار الوضع عليه لائحة.

وقال ابن كثير عند هذه الآية: هذه الحكايةُ ليس يَصِحُّ إسنادُها، ولو صحَّ إلى ذلك الأعرابيِّ (يعني عبد الله بن قلابة) فقد يكونُ اختَلَق ذلك، أو أنه أصابه نوعٌ من الهَوَس والخَبَال فاعتَقَد أن ذلك له حقيقةٌ في الخارج، وليس كذلك. وهذا ممَّا يُقطَع بعَدَم صحته.

(٨) ـ ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ صفةٌ أُخرَى لـ﴿إِرَمَ﴾، والضَّميرُ لها سواءٌ جُعِلَتْ اسمَ القبيلَةِ أو البلدَةِ.

(٩) ـ ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾: قَطَعوهُ واتَّخذُوه مَنازِلَ؛ كقولِه[1]: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء: ١٤٩]، ﴿بِٱلْوَادِ﴾: وادي القُرى.

(١٠) ـ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ لكثرةِ جُنودِه ومَضارِبِهم التي كانوا يَضرِبُونَها إذا نزلوا، أو لتَعذيبِه بالأوتادِ.

(١١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ صِفَةٌ للمَذكورينَ: عادٍ وثمودَ وفِرعونَ، أو ذمٌّ مَنصوبٌ أو مَرفوعٌ.

(١٢) ـ ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ بالكُفرِ والظُّلمِ.

(١٣) ـ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾: ما خلطَ لهم مِن أَنواعِ العَذابِ، وأَصلُهُ: الخَلْطُ، وإنَّما سُمِّيَ به الجِلدُ المَضفورُ الذي يُضرَبُ به لكونِه مَخلوطَ الطَّاقاتِ بعضِها ببعضٍ.

وقيل: شُبِّهَ بالسَّوطِ ما أحلَّ بهم في الدُّنيا إشعارًا بأنَّه بالقياسِ إلى ما أُعِدَّ لَهُم في الآخرةِ مِن العَذابِ كالسَّوْطِ إذا قيسَ إلى السَّيفِ.

(١٤) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ المكانِ الذي يَترَقَّبُ فيه الرَّصَدُ[2]، مِفْعَالٌ مِن رَصَّدهُ[3] كالميقاتِ مِن وقَّتَهُ، وهو تمثيلٌ لإرصادِه العُصاةَ بالعِقابِ.

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ كأنَّه قيل:

---

(١) في النسخ عدا نسخة الفاروقي: «لقوله».

(٢) الرَّصَد: جمع راصد.

(٣) هكذا ضبطت في نسخة الفاروقي بالتشديد.

إنَّـه لبالمرصـادِ مِـن الآخـرةِ فلا يريدُ إلَّا السَّـعيَ لهـا(١)، فأمَّا الإنسـانُ فـلا يُهِمُّهُ إلا الدُّنيا ولذَّاتُها.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾: اختبرَهُ بالغنى واليُسرِ ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ بالجاهِ والمالِ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾: فضَّلَني بما أَعطاني، وهو خبرُ المبتدأِ الذي هو الإنسانُ، والفاءُ لِمَا في (أمَّا) مِن مَعنى الشَّرطِ، والظَّرفُ المُتوسِّطُ في تقديرِ التَّأخيرِ، كأنَّه قيل: فأمَّا الإنسانُ فقائلٌ: ربي أكرمنِي وقتَ ابتلائهِ بالإنعامِ.

وكذا قولُه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ إذ التَّقديرُ: وأمَّـا الإنسانُ إذا مـا ابتلاهُ؛ أي: بالفَقرِ والتَّقتيرِ؛ ليُوازِنَ قَسِيمَه ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ لقُصورِ نَظَرِهِ وسُوءِ فِكرِه، فإنَّ التَّقتيرَ قد يُؤدِّي إلى كرامةِ الدَّارينِ، إذ التَّوسِعَةُ قد تُفْضِي إلى قصدِ الأعداءِ والانهماكِ في حُبِّ الدُّنيا، ولذلك ذمَّهُ على قوليهِ، ورَدَعَه عنه بقولِه: ﴿كَلَّا﴾ مع أنَّ قولَهُ الأوَّلَ مُطابِقٌ لـ(أكرمه) ولم يقُل: «فأهانه وقدرَ عليه» كما قال: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾؛ لأنَّ التَّوسِعَةَ تَفضُّلٌ، والإخلالَ به لا يكونُ إهانةً.

وقرأَ ابنُ عامرٍ والكوفِيُّونَ: ﴿أَكْرَمَنِ﴾ و﴿أَهَٰنَنِ﴾ بغيرِ ياءٍ في الوصلِ والوقفِ، وعَن أبي عمرٍو مثلُه، ووافَقَهُم نافعٌ في الوَقفِ(٢)، وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿فقدَّرَ﴾ بالتَّشديدِ(٣).

---

(١) قوله: «فلا يريد إلا السعي لها» قال الشهاب: تبع فيه الزمخشري في قوله: «لا يريد من الإنسان إلا الطاعة» وقد شنع عليه في «الانتصاف» لابتناء كلامه على الاعتزال، وأنّ المعاصي ليست بإرادته، إلا أنه لا وجه له كما في «الكشف» لأنه إذا كانت الإرادة بمعنى الطلب والأمر لم يكن محلَّ النزاع، إنما النزاع إذا كانت الإرادة بالمعنى المتعارف وهي غير مرادة هنا.

(٢) أثبت الياء في الحالين البزي، وأثبتها في الوصل نافع، وخيَّر فيهما أبو عمرو، والباقون بحذفها مطلقاً. انظر: «التيسير» (ص: ٢٢٣)، و«البدور الزاهرة» (ص: ٣٤٢).

(٣) وقـرأ بهـا أيضاً أبـو جعفر، والباقـون بالتخفيف. انظر: «النشـر» (٢/ ٤٠٠)، ولم ترد في «السـبعة» و«التيسـير». وذكرهـا الداني فـي «جامـع البيـان» (٤/ ١٧٠٠) وقـال: ولـم يذكر ابـن مجاهد هذا الحرف فـي كتابه.

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾؛ أي: بَلْ فِعلُهُم أسوَأُ مِن قولِهم وأدَلُّ على تَهالُكِهِم بالمالِ، وهو أَنَّهُم لا يُكرِمُونَ اليتيمَ بالنَّفقَةِ والمبرَّةِ، ولا يَحُثُّونَ أهلَهُم على طعامِ المسكينِ فَضْلًا عَن غَيرِهِم، وقرأ الكُوفِيُّونَ ﴿تَحَٰضُّونَ﴾[١].

(١٩) ـ ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾: الميراثَ، وأصلُهُ: وُراثٌ ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾: ذا لَمٍّ؛ أي: جمْعٍ بينَ الحَلالِ والحَرامِ؛ فإنَّهُم كانوا لا يورِّثونَ النِّساءَ والصِّبيانَ ويأكلونَ أَنصباءَهُم، أو يأكلونَ ما جمعَهُ المورِّثُ مِن حَلالٍ أو حَرامٍ عَالِمِينَ بذلك.

(٢٠) ـ ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾: كثيرًا مع حرصٍ وشَرَهٍ.

وقرأ أبو عمرٍو وسهلٌ ويعقوبُ: ﴿لا يكرمون﴾ إلى ﴿ويحبون﴾ بالياءِ، والباقونَ بالتَّاءِ[٢].

(٢١ ـ ٢٢) ـ ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عَن ذلك وإنكارٌ لِفِعْلِهِم، وما بعدَهُ وَعيدٌ عليه.

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا﴾: دكًّا بعدَ دَكٍّ حتَّى صارَتْ مُنخَفِضَةَ الجبالِ والتِّلالِ، أو هباءً مُنبَثًّا ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ظهرَتْ آياتُ قُدرَتِه وآثارُ قَهْرِه، مثَّلَ ذلك بما يَظهرُ عندَ حُضورِ السُّلطانِ مِن آثارِ هيبَتِه وسِيَاسَتِه ﴿وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ بحسبِ مَنازِلِهم ومَرَاتِبِهم.

(٢٣) ـ ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ كقولِه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩١]، وفي الحديثِ: «يُؤْتَى بجهنَّمَ يومَئذٍ لها سبعونَ ألفَ زِمامٍ مع كلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألفَ ملَكٍ يجرُّونَها»[٣].

---

(١) وقرأ الباقون دون ألف. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٥)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٥)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢)، و«النشر» (٢/ ٤٠٠).

(٣) رواه مسلم (٢٨٤٢) من حديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بدلٌ مِن ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾ والعامِلُ فيهِما: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ أي: يتذكَّرُ مَعاصيَهُ، أو يتَّعِظُ لأنَّه يعلَمُ قُبحَها فيندَمُ عليها.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾؛ أي: مَنفعةُ الذِّكرى؛ لئلَّا يُناقِضَ ما قبلَهُ، واستُدِلَّ به على عَدمِ وُجوبِ قبولِ التَّوبةِ؛ فإنَّ هذا التَّذكُّرَ تَوبةٌ غيرُ مَقبولَةٍ.

(٢٤) ـ ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾؛ أي: لحياتي هذهِ، أو: وقتَ حَياتِي في الدُّنيا أعمالًا صالحةً، وليس في هذا التَّمنِّي دلالةٌ على استقلالِ العَبدِ بفعلِهِ؛ فإنَّ المَحجورَ عَن الشَّيءِ قد يَتمنَّى أن كانَ مُمكَّنًا منه[1].

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ الهاءُ للهِ؛ أي: لا يتولَّى عذابَ اللهِ ووثَاقَهُ يومَ القيامَةِ سِواهُ إذ الأمرُ كلُّه لهُ، أو للإنسانِ؛ أي: لا يعذِّبُ أحدٌ مِن الزَّبانيةِ مثلَ ما يُعذِّبُونَه.

وقرأَهُما الكِسائيُّ ويَعقوبُ على بناءِ المَفعولِ[2].

(٢٧) ـ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ على إرادةِ القَولِ، وهي التي اطمأَنَّتْ بذكرِ اللهِ فإنَّ النَّفسَ تَترقَّى في سلسلةِ الأَسبابِ والمُسبَّباتِ إلى الواجبِ لذاتِه فتستقِرُّ[3] دونَ مَعرِفَتِه وتَستَغْنِي بِهِ عَن غيرِه، أو: إلى الحقِّ[4] بحيثُ لا يَريبُها شَكٌّ.

---

(١) فيه رد على الزمخشري. انظر: «الكشاف» (٩/ ٥٨٤).

(٢) هي قراءة الكسائي، والباقون بالكسر فيهما. انظر: «السبعة» (ص: ٦٨٥)، و«التيسير» (ص: ٢٢٢)، و«النشر» (٢/ ٤٠٠).

(٣) قوله: «فتستقر»، كذا في نسخنا، وفي بعض النسخ: «فتستفز» بالفاء والزاي المعجمة؛ أي: تضطرب وتقلق قبل الوصول إلى معرفته، فإذا وصلت إليه؛ استغنت به عما سواه واطمأنت به. قاله الشهاب.

(٤) قوله: «أو إلى الحق»؛ معطوف بحسب المعنى على قوله: «بذكر الله» لأنّ المعنى: المطمئنة إلى ذكر الله أو المطئنة إلى الحق. قاله الشهاب.

أو: الآمنةُ التي لا يَستَفِزُّهَا خَوفٌ ولا حزنٌ، وقد قُرِئَ بها[١].

(٢٨ ـ ٣٠) ـ ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾: إلى أمرِه أو موعدِه بالمَوْتِ، ويُشعِرُ ذلك بقولِ مَن قال: كانَتِ النُّفوسُ قبلَ الأبدانِ مَوجودةً في عالمِ القُدسِ، أو: بالبعثِ.

﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيتِ ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عندَ اللهِ ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾: في جملةِ عِبادي الصَّالحين ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ معَهُم.

أو: في زُمرَةِ المُقرَّبينَ فتَستضيءُ بنُورِهم، فإنَّ الجَواهرَ القُدسيَّةَ كالمَرايا المتقابلَةِ.

أو: ادخُلِي في أجسادِ عِبادِي التي فارَقْتِ عنها، وادخُلِي دارَ ثوابي التي أعدَدْتُ لكِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورَةَ الفَجرِ في الليالي العشرِ غُفِرَ لهُ، ومَن قرأَهَا في سائرِ الأيَّامِ كانَت له نورًا يومَ القيامةِ»[٢].

* * *

---

(١) أي: (يا أيَّتها النَّفسُ الآمِنةُ المُطمئنَّةُ) نسبت لأبي رضي الله عنه. انظر: «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٩٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٧٤).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٩/ ٢٩٠)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٧٨)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور.

(٨٩) سورة الفجر مكية وآياتها ثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾

أمّا الفجر فمعروف وهو الصبح، وعن مسروق: المراد بـه فجر يوم النحر خاصة، وهو خاتمة الليالي العشر، وقيل: المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده، والليالي العشر المراد بها عشر ذي الحجة[1]، وقـد ثبت في صحيح البخاري « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » يعني عشر ذي الحجة، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال: « ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجُلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء »[2]. **وقيل** : المراد بذلك العشر الأول من المحرم، عن ابن عباس : ﴿ وليال عشر ﴾ قال: هو العشر الأول من رمضان، والصحيح القول الأول . روي عن جابر يرفعه: « إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر »[3]. وقوله تعالى: ﴿ والشفع والوتر ﴾ الوتر يوم عرفة لكونه التاسع، والشفع يوم النحر لكونه العاشر، قاله ابن عباس : **قول ثان** : عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله تعالى: ﴿ والشفع والوتر ﴾ قلت: صلاتنا وترنـا هذا ؟ قال: لا ، ولكن الشفع يوم عرفة والوتر ليلة الأضحى . **قول ثالث** : عن أبي سعيد بن عوف قال: سمعت عبدالله بن الزبير يخطب الناس فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن الشفع والوتر ؟ فقال: الشفع

---

(١) وهو قول ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف .

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس مرفوعاً .

(٣) أخرجه أحمد والنسائي وابن أبي حاتم ، قال ابن كثير : إسناد رجاله لا بأس بهم والمتن في رفعه نكارة .

قول الله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾، والوتر قوله تعالى: ﴿ومن تأخر فلا إثم عليه﴾[1]. وفي الصحيحين: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»[2]. **قول رابع**: قال الحسن البصري: الخلق كلهم شفع ووتر، أقسم تعالى بخلقه[3]. وقال ابن عباس: ﴿والشفع والوتر﴾ قال: الله وتر واحد، وأنتم شفع، ويقال: الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب. **قول خامس**: عن مجاهد ﴿والشفع والوتر﴾ قال: الشفع الزوج، والوتر الله عزَّ وجلَّ[4]، وعنه: الله الوتر وخلقه الشفع الذكر والأنثى، وعنه: كل شيء خلقه الله شفع: السماء والأرض، والبر والبحر، والجن والإنس، والشمس والقمر، ونحو هذا، كقوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ أي لتعلموا أن خالق الأزواج واحد. **قول سادس**: قال الحسن: ﴿والشفع والوتر﴾ هو العدد منه شفع، ومنه وتر. **قول سابع**: قال أبوالعالية والربيع بن أنَس: هي الصلاة منها شفع كالرباعية والثنائية، ومنها وتر كالمغرب، فإنها ثلاث، وهي وتر النهار، وكذلك صلاة الوتر في آخر التهجد من الليل، ولم يجزم ابن جرير بشيء من الأقوال في الشفع والوتر.

وقوله تعالى: ﴿والليل إذا يسر﴾ قال ابن عباس: أي إذا ذهب، وقال مجاهد وأبو العالية ﴿والليل إذا يسر﴾: إذا سار أي ذهب، ويحتمل إذا سار: أي أقبل، وهذا أنسب لأنه في مقابلة قوله: ﴿والفجر﴾ فإن الفجر هو إقبال النهار، وإدبار الليل، فإذا حمل قوله: ﴿والليل إذا يسر﴾ على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس، كقوله: ﴿والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس﴾ وقال الضحّاك: ﴿والليل إذا يسر﴾ أي يجري، وقال عكرمة: ﴿والليل إذا يسر﴾ يعني ليلة جمع ليلة المزدلفة، وقوله تعالى: ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ أي لذي عقل ولب وحجى، وإنما سمي العقل (حجراً) لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال، وحجَر الحاكم على فلان إذا منعه التصرف، وهذا القسم هو بأوقات العبادة، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب، التي يتقرب إليه عباده المتقون المطيعون له، الخائفون منه، المتواضعون لديه، الخاشعون لوجهه الكريم، ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾؟ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم، وجعلهم أحاديث وعبراً فقال: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد﴾؟ وهؤلاء (عاد الأولى) وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم ﴿بريح صرصر عاتية﴾، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون، فقوله تعالى: ﴿إرم ذات العماد﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم، وقوله تعالى: ﴿ذات العماد﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشاً، ولهذا ذكّرهم (هود) بتلك النعمة، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) وهو رواية عن مجاهد.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

وقال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾، وقال ههنا: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم، وقال مجاهد: إرم أمة قديمة يعني عاداً الأولى، قال قتادة والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد، وكانوا أهل عمد لا يقيمون، وقال ابن عباس: إنما قيل لهم ذات العماد لطولهم، واختار الأول ابن جرير، وقوله تعالى: ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ الضمير يعود على القبيلة، أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعني في زمانهم، روي عن المقدام أنه ذكر ﴿إرم ذات العماد﴾ فقال: «كان الرجل منهم يأتي على الصخرة فيحملها على الحي فيهلكهم»[1]، وسواء كانت العماد أبنية بنوها، أو أعمدة بيوتهم للبدو، أو سلاحهم يقاتلون به، أو طول الواحد منهم، فهم قبيلة وأمة من الأمم، وهم المذكورون في القرآن في غير ما موضع، المقرونون بثمود كما ههنا، والله أعلم. ومن زعم أن المراد بقوله: ﴿إرم ذات العماد﴾ مدينة إما دمشق، أو اسكندرية أو غيرهما، فضعيف لأنه لا يتسق الكلام حينئذ، ثم المراد إنما هو الاخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يرد، لا أن المراد الاخبار عن مدينة أو إقليم، وقول ابن جرير: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إرم ذات العماد﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تصرف، فيه نظر، لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ يعني يقطعون الصخر بالوادي، قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها، يقال: اجتاب الثوب: إذا فتحه، وقال تعالى: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾، وقال ابن إسحاق: كانوا عرباً وكان منزلهم بوادي القرى، وقد ذكرنا قصة عاد مستقصاة في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته. وقوله تعالى: ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال ابن عباس: الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره، ويقال: كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها، وكذا قال مجاهد: كان يوتد الناس بالأوتاد، وقال السدي: كان يربط الرجل كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه، وقال ثابت البناني: قيل لفرعون ذي الأوتاد، لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت، وقوله تعالى: ﴿الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس، ﴿فصبّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ أي أنزل عليهم رجزاً من السماء، وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين، وقوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال ابن عباس: يسمع ويرى يعني يرصد خلقه فيما يعملون، ويجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى، وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ويقابل كلاً بما يستحقه وهو المنزه عن الظلم والجور.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن المقدام مرفوعاً.

يقول تعالى منكراً على الإنسان، إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له، وليس كذلك بل هو ابتلاء وامتحان، كما قال تعالى: ﴿ أيحسبون أنما نمدهم بـه من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له، قال الله تعالى: ﴿ كلا﴾ أي ليس الأمر كما زعم لا في هذا ولا في هذا، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيراً بأن يصبر ، وقوله تعالى: ﴿ بل لا تكرمون اليتيم﴾ فيه أمر بالاكرام له كما جاء في الحديث: « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه »[1]. وقال ﷺ: « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الابهام[2]، ﴿ ولا تحاضون على طعـام المسكين﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وتأكلون التراث﴾ يعني الميراث ﴿ أكلاً لماً﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وتحبون المال حباً جماً﴾ أي كثيراً فاحشاً.

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال تعالى: ﴿ كلاَّ﴾ أي حقاً ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وجاء ربك﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق، محمد صلوات الله وسلامه عليه، فيجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً، وقوله تعالى: ﴿ وجيء يومئذ بجهنم﴾ روى الإمام مسلم في صحيحه: عن عبد الله بن مسعود قال رسول ﷺ: « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[3]، وقوله تعالى: ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان﴾ أي عمله وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه، ﴿ وأنى له الذكرى﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى، ﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً، ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعاً، كما قال الإمام أحمد بن حنبل عن جبير بن نفير عن محمد بن عمرة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة، ولود أنه رد إلى الدنيا

(١) أخرجه عن عبد الله من المبارك .
(٢) أخرجه أبو داود .
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه .

كما يزداد من الأجر والثواب، وقال الله تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه، ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ أي وليس أحد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم عزَّ وجلَّ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين، فأما النفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق، فيقال لها: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿راضية﴾ أي في نفسها، ﴿مرضية﴾ أي قد رضيت عن الله، ورضي عنها وأرضاها، ﴿فادخلي في عبادي﴾ أي في جملتهم، ﴿وادخلي جنتي﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار، وفي يوم القيامة أيضاً، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك ههنا، ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية، فروي أنها نزلت في عثمان بن عفّان، وقيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾ قال: نزلت وأبو بكر جالس فقال: يا رسول الله ما أحسن هذا؟ فقال: «أما إنه سيقال لك هذا»[1]. وروى الحافظ ابن عساكر، عن أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «قل: اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك»[2]

[آخر تفسير سورة الفجر، ولله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر.

تفسير سورة الفجر

وهى مكية .

قال النسائى : أخبرنا عبد الوهاب بن الحكم ، أخبرنى يحيى بن سعيد ، عن سليمان ، عن محارب بن دِثار وأبى صالح ، عن جابر قال : صلى معاذ صلاةً ، فجاء رجل فصلى معه فطَوّل ، فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذا فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلى معه فَطَوّل عَلَىّ ، فانصرفت وصليتُ فى ناحية المسجد ، فعلفت ناضحى . فقال رسول الله ﷺ : « أفتّان يا معاذ ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ و﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ و ﴿ وَالْفَجْرِ﴾ و ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ » (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

أما الفجر فمعروف ،وهو : الصبح . قاله على ،وابن عباس ، ومجاهد ،وعكرمة ، والسدى .

وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالى العشر .

وقيل : المراد بذلك الصلاة التى تفعل عنده ، كما قاله عكرمة .

وقيل : المراد به جميع النهار . وهو رواية عن ابن عباس .

والليالى العشر : المراد بها عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف . وقد ثبت فى صحيح البخارى ، عن ابن عباس مرفوعا :« ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » ــ يعنى عشر ذى الحجة ــ قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشىء » (٢) .

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧٣) .

(٢) صحيح البخارى برقم (٩٦٩) .

وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم ، حكاه أبو جعفر ابن جرير ولم يعزه إلى أحد [١] .

وقد روى أبو كُدَيْنة ، عن قابوس بن أبى ظِبْيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس : ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ قال : هو العشر الأول من رمضان .

والصحيح القول الأول ؛ قال الإمام أحمد :

حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا عَيَّاش بن عقبة ، حدثنى خَير بن نُعَيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر، عن النبى ﷺ قال : « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ،والشفع يوم النحر » .

ورواه النسائى عن محمد بن رافع وعبدة بن عبد الله ، كل منهما عن زيد بن الحباب ، به [٢] . ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث زيد بن الحباب ، به [٣] . وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم ، وعندى أن المتن فى رفعه نكارة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : قد تقدم فى هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة ، لكونه التاسع ، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . وقاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك أيضا .

قول ثان : وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنى عقبة بن خالد ، عن واصل ابن السائب قال : سألت عطاء عن قوله : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قلتُ : صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا، ولكن الشفع يوم عرفة ، والوتر ليلة الأضحى .

قول ثالث : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهانى ، حدثنى أبى ، عن النعمان ــ يعنى ابن عبد السلام ــ عن أبى سعيد بن عوف ، حدثنى بمكة قال : سمعتُ عبدَ الله ابن الزبير يخطبُ الناس ، فقام إليه رجلٌ فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرنى عن الشفع والوتر . فقال: الشفع قول الله ، عز وجل : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، والوتر قوله : ﴿ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة:٢٠٣] .

وقال ابن جريج : أخبرنى محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام [٤] التشريق ، والوتر آخر أيام التشريق .

وفى الصحيحين من رواية أبى هُرَيرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » [٥] .

قول رابع : قال الحسن البصرى ، وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ، ووتر ، أقسم تعالى بخلقه . وهو رواية عن مجاهد ، والمشهور عنه الأول .

---

(١) فى أ : « إلى واحد » .

(٢) المسند (٣/ ٣٢٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٧١) .

(٣) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٠٨) .

(٤) فى أ : « الشفع الأيام من » .

(٥) صحيح البخارى برقم (٦٤١٠) وصحيح مسلم برقم (٢٦٧٧) .

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الله وتر واحد ، وأنتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة ، والوتر : صلاة المغرب .

قول خامس : قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبيد بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله عز وجل .

وقال أبو عبد الله ، عن مجاهد : الله الوتر ، وخلقه الشفع ، الذكر والأنثى .

وقال ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : كل شىء خلقه الله شفع ، السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر ، ونحو هذا . ونحا مجاهد فى هذا ما ذكروه فى قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات:٤٩] أى : لتعلموا أن خالق الأزواج واحد .

قول سادس : قال قتادة ، عن الحسن : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : هو العدد ، منه شفع ومنه وتر .

قول سابع : فى الآية الكريمة رواه ابنُ أبى حاتم وابنُ جَرير من طريق ابن جريج ، ثم قال ابن جرير : ورُوى عن النبى ﷺ خبر يؤيد القول الذى ذكرنا عن أبى الزبير : حدثنى عَبد الله بن أبى زياد القطوانى ، حدثنا زيد بن الحباب ، أخبرنى عياش بن عقبة ، حدثنى خير [١] بن نُعَيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قال : « الشفع اليومان ، والوتر اليوم الثالث » [٢] .

هكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ ، وهو مخالف لما تقدم من اللفظ فى رواية أحمد والنسائى وابن أبى حاتم ، وما رواه هو أيضا ، والله أعلم .

قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغيرهما : هى الصلاة ، منها شفع كالرباعية والثنائية ، ومنها وتر كالمغرب ، فإنها ثلاث ، وهى وتر النهار . وكذلك صلاة الوتر فى آخر التهجد من الليل .

وقد قال عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة ، عن عمران بن حصين : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قال: هى الصلاة المكتوبة ، منها شفع ومنها وتر . وهذا منقطع وموقوف ، ولفظه خاص بالمكتوبة . وقد روى متصلا مرفوعا إلى النبى ﷺ ولفظه عام ، قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو داود ـ هو الطيالسى ـ حدثنا همام ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام : أن شيخا [٣] حدثه من أهل البصرة ، عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ سُئِل عن الشفع والوتر ، فقال: « هى الصلاة ، بعضها شفع ، وبعضها وتر » [٤] .

هكذا وقع فى المسند ، وكذا رواه ابن جرير عن بُنْدَار ، عن عفان وعن أبى كُرَيْب ، عن عبيد الله بن موسى ، كلاهما عن همام ـ وهو ابن يحيى ـ عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن

---

(١) فى أ : « حدثنى القطرانى » .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/١٠٩) .

(٣) فى أ : « أن جبيرا » .

(٤) المسند (٤/٤٣٧) .

شيخ، عن عمران بن حصين [١] . وكذا رواه أبو عيسى الترمذى ، عن عمرو بن على ، عن ابن مَهْدِىّ وأبى داود ، كلاهما عن همام ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن رجل من أهل البصرة، عن عمران بن حصين ، به . ثم قال : غريب ، لا نعرفه إلا من حديث قتادة ، وقد رواه خالد بن قيس أيضا عن قتادة [٢] .

وقد روى عن عمران بن عصام ، عن عمران نفسه ، والله أعلم .

قلت : ورواه ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا همام [٣] ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام الضبعى ـ شيخ من أهل البصرة ـ عن عمران بن حصين ، عن النبى ﷺ فذكره ، هكذا رأيته فى تفسيره ، فجعل الشيخ البصرى هو عمران بن عصام [الضبعى] [٤] .

وهكذا رواه ابن جرير : حدثنا نصر بن على ،حدثنى أبى ، حدثنى خالد بن قيس ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن عمران بن حصين ، عن النبى ﷺ فى الشفع والوتر قال : « هى الصلاة منها شفع ، ومنها وتر » [٥] .

فأسقط ذكر الشيخ المبهم ، وتفرد به عمران بن عصام الضبعى أبو عمارة البصرى ، إمام مسجد بنى ضُبَيعة وهو والد أبى جَمْرَة [٦] نصر بن عمران الضبعى . روى عنه قتادة ، وابنه أبو جمرة [٧] ، والمثنى بن سعيد ، وأبو التياح يزيد بن حميد . وذكره ابن حبّان فى كتاب الثقات [٨] ، وذكره خليفة ابن خَيَاط فى التابعين [٩] من أهل البصرة ، وكان شريفا نبيلا حظيا عند الحجاج بن يوسف ، ثم قتله يوم الزاوية سنة ثلاث [١٠] وثمانين لخروجه مع ابن الأشعث ، وليس له عند الترمذى سوى هذا الحديث الواحد . وعندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه ،والله أعلم .

ولم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ [١١] ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : أى إذا ذهب .

وقال عبد الله بن الزبير : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ : حتى يذهب بعضه بعضا .

وقال مجاهد ، وأبو العالية ،وقتادة ، ومالك ، عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ إذا سار .

وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس ، أى : ذهب . ويحتمل أن يكون المراد إذا سار ،

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/١٠٩) .

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٣٤٢) .

(٣) فى أ : « أخبرنا هشام » .

(٤) زيادة من أ .

(٥) تفسير الطبرى (٣٠/١٠٩) .

(٦،٧) فى أ : « أبى حمزة » .

(٨) الثقات (٥/ ٢٣٤) .

(٩) فى أ : « المتابعين » .

(١٠) فى م: « سنة ثنتين » .

(١١) فى م : « يسرى » .

أى: أقبل . وقد يقال : إن هذا أنسب ؛ لأنه فى مقابلة قوله : ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (١) ﴾ ، على إقباله كان قَسَماً بإقبال الليل وإدبار النهار ، وبالعكس ، كقوله: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٧،١٨] . وكذا قال الضحاك : ﴿[وَاللَّيْلِ] (٢) إِذَا يَسْرِ ﴾ أى : يجرى .

وقال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ يعنى : ليلة جَمْع . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمد بن كعب القرظى ، يقول فى قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ قال : اسر يا سار ولا تبين إلا بجَمْع .

وقوله : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أى: لذى عقل ولب وحجا [ودين] (٣) ،وإنما سمى العقل حجْراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ،ومنه حجْرُ البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامى .ومنه حجر اليمامة ،وحَجَرَ الحاكم على فلان :إذا منعه التصرف ، ﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان:٢٢]،كل هذا من قبيل واحد ،ومعنى متقارب، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ،وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التى يتقرب بها [إليه عباده] (٤) المتقون المطيعون له،الخائفون منه،المتواضعون لديه،الخاشعون لوجهه الكريم .

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين ، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه . فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ،وجعلهم أحاديث وعبَرا ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ وهؤلاء عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عَوص بن سام بن نوح ، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً ، عليه السلام ، فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٧، ٨] .وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير ما موضع ، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون .

فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ (٥) ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : عطف بيان ؛ زيادة تعريف بهم .

وقوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشَّعر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمانهم (٦) خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكَّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم ، فقال : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ [لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (٧) ﴾ [الأعراف:٦٩]. وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا

(١) فى م : « يسرى » . (٢) زيادة من م ، أ . (٣) زيادة من م .
(٤) زياة من م ، أ . (٥) فى م : « بعاد إرم » . (٦) فى م : « زيادتهم » .
(٧) فى م ، أ ، هـ : « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » والصواب ما أثبتناه .

عادٌ فَاستَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] ، وقال هاهنا : ﴿ **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ أى : القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم ، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم .

قال مجاهد : إرم : أمة قديمة . يعنى : عادا الأولى ، كما قال قتادة بن دعامة ، والسُّدِّيُّ : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوى .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والكلبى فى قوله : ﴿ **ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ : كانوا أهل عمود لا يقيمون .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : إنما قيل لهم :﴿ **ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ لطولهم .

واختار الأول ابنُ جرير ، ورد الثانى فأصاب .

وقوله : ﴿ **الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ : أعاد ابن زيد الضميرَ على العماد ؛ لارتفاعها ، وقال: بنوا عُمُدا بالأحقاف لم يخلق مثلها فى البلاد . وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة، أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة فى البلاد ، يعنى فى زمانهم . وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف ؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال : التى لم يعمل مثلها فى البلاد، وإنما قال: ﴿ **لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، حدثنى معاوية بن صالح ، عمن حدثه ، عن المقدام ، عن النبى ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : « كان الرجل منهم يأتى على صخرة فيحملها على الحى فيهلكهم » (١) .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو الطاهر ، حدثنا أنس بن عياض ، عن ثور بن زيد الديلى . قال : قرأت كتابا ــ قد سمى حيث قرأه ــ : أنا شداد بن عاد ، وأنا الذى رفعت العماد ، وأنا الذى شددت بذراعى نظر واحد ، وأنا الذى كنزت كنزا على سبعة أذرع ، لا يخرجه إلا أمة محمد ﷺ .

قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها ، أو أعمدة بيوتهم للبدو ، أو سلاحا يقاتلون به ، أو طول الواحد منهم ــ فهم قبيلة وأمة من الأمم ، وهم المذكورون فى القرآن فى غير ما موضع ، المقرونون بثمود كما هاهنا ، والله أعلم . ومن زعم أن المراد بقوله : ﴿ **إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ**﴾ مدينة إما دمشق ، كما روى عن سعيد بن المسيب وعكرمة ، أو اسكندرية كما رُوى عن القُرَظى (٢)، أو غيرهما ، ففيه نظر ، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ ، إن جعل ذلك بدلا أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذى لا يُرَد ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم .

---

(١) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى فتح البارى لابن حجر (٨/ ٧٠١) .

(٢) فى أ : « القرطبى » .

وإنما نبهت على ذلك لئلا يُغْتَرَّ بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، مبنية بلبن الذهب والفضة ، قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصباءها [١] لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة ، وثمارها ساقطة ، ودورها لا أنيس بها ، وسورها [٢] وأبوابها تَصفُر ، ليس بها داع ولا مجيب . وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد ــ فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم فى جميع ذلك .

وذكر الثعلبي وغيره أن رجلا من الأعراب ــ وهو عبد الله بن قِلابة ــ في زمان معاوية ذهب في طلب أباعر له شردت ، فبينما هو يتيه فى ابتغائها ، إذ طلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب ، فدخلها فوجد فيها قريباً مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التى تقدم ذكرها ، وأنه رجع فأخبر الناس، فذهبوا معه إلى المكان الذى قال فلم يروا شيئا .

وقد ذكر ابن أبى حاتم قصة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ هاهنا مطولة جداً ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابى فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهَوَس والخبال[٣] ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة فى الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطير الذهب والفضة ، وألوان الجواهر واليواقيت [٤] واللآلئ والإكسير الكبير ، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها ، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء ، فيأكلونها بالباطل فى صرفها فى بخاخير وعقاقير ، ونحو ذلك من الهذيانات ، ويَطْنِزُون بهم . والذى يجزم به أن فى الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزاً كثيرة ، من ظفر بشىء منها أمكنه تحويله [٥] ، فأما على الصفة التى زعموها فكذب وافتراء وبهت ، ولم يصح فى ذلك شىء مما يقولونه إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم، والله سبحانه وتعالى الهادى للصواب .

وقولُ ابن جرير : يحتمل أن يكون المراد بقوله :﴿ إِرَمَ ﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصرَف فيه نظر ؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ يعنى : يقطعون الصخر بالوادى . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد . ومنه يقال : « مُجتابى النّمار » . إذا خرقوها ، واجتاب الثوب : إذا فتحه . ومنه الجيب أيضا . وقال الله تعالى:﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩] .

وأنشد ابن جرير وابن أبى حاتم هاهنا قولَ الشاعر :

---

(١) فى أ : « وأن حصباؤها » وهو خطأ.
(٢) فى م : « وسررها » .
(٣) فى م : « والخيال » .
(٤) فى م : « والياقوت » .
(٥) فى م : « تحويلها » .

ألا كُلّ شىء ـ ما خَلا الله ـ بائدٌ   كَما بَاد حَىٌّ من شنيف ومارد
هُم ضَرَبُوا فى كُـلِّ صَمَّاء صَعْـدة   بأيد شدَاد أيّدات السَّواعد (١)

وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادى القرى . وقد ذكرنا قصة « عاد » مستقصاة فى سورة « الأعراف » بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَاد ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره .ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حَديد يعلقهم بها . وكذا قال مجاهد : كان يوتد الناس بالأوتاد . وهكذا قال سعيد بن جبير ، والحسن ، والسدى . قال السدى: كان يربط الرجل ،كل قائمة من قوائمه فى وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشدخه (٢) .

وقال قتادة : بلغنا أنه كانت له مَطَالٌّ وملاعب ، يلعب له تحتها ، من أوتاد وحبال .

وقال ثابت البنانى ، عن أبى رافع : قيل لفرعون﴿ ذِى الأَوْتَاد ﴾ ؛ لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت .

وقوله :﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ أى : تمردوا وعتوا وعاثوا فى الأرض بالإفساد والأذيَّة للناس ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى : أنزل عليهم رجزاً من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يَرُدُّها عن القوم المجرمين .

وقوله :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ : قال ابن عباس : يسمع ويرى . يعنى : يرصد (٣) خلقه فيما يعملون ، ويجازى كلا بسعيه فى الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه ، فيحكم فيهم بعدله، ويقابل كلا بما يستحقه . وهو المنزه عن الظلم والجور .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً غريباً جداً ـ وفى إسناده نظر وفى صحته ـ فقال : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا يونس الحذاء ، عن أبى حمزة البيسانى ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المؤمن لدى الحق أسير . يا معاذ ، إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يُخَلَّف جسر جهنم خلف ظهره . يا معاذ ، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته ، وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله ، عز وجل ، فالقرآن دليله ، والخوف محجته ، والشوق مطيته ، والصلاة كهفه ، والصوم جنته ، والصدقة فكاكه ، والصدق أميره ، والحياء وزيره ، وربه ، عز وجل ، من وراء ذلك كله بالمرصاد » (٤) .

قال ابن أبى حاتم : يونس الحذاء وأبو حمزة مجهولان ، وأبو حمزة عن معاذ مرسل . ولو كان عن أبى حمزة لكان حسناً . أى : لو كان من كلامه لكان حسناً . ثم قال ابن أبى حاتم :

---

(١) تفسير الطبرى (٣٠/١١٣) .
(٢) فى أ : « فشخده » .   (٣) فى أ : « يراصد » .
(٤) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٣١/١٠) من طريق إسحاق بن أبى حسان ، عن أحمد بن أبى الحوارى به ، ورواه أبو نعيم فى الحلية (٢٦/١) من طريق عبد الملك بن أبى كريمة ، عن أبى حاجب ، عن عبد الرحمن، عن معاذ مرفوعاً بنحوه .

حدثنا أبى ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أيفع بن عبد الكلاعى : أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول : إن لجهنم سبع قناطر ـ قال : والصراط عليهن، قال: فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى ، فيقول: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قال : فيحاسبون على الصلاة ويُسألون عنها ، قال : فيهلك فيها من هلك ، وينجو من نجا ، فإذا بلغوا القنطرة الثانية حُوسبوا على الأمانة كيف أدوها ، وكيف خانوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا. فإذا بلغوا القنطرة الثالثة سُئلوا عن الرحم كيف وَصَلُوها وكيف قطعوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا . قال : والرحم يومئذ متدلية إلى الهُوِىّ فى جهنم تقول : اللهم من وصلنى فَصِلْه ،ومن قطعنى فاقطعه . قال :وهى التى يقول الله عز وجل :﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

هكذا أورد هذا الأثر ، ولم يذكر تمامه .

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على الإنسان فى اعتقاده إذا وسع الله عليه فى الرزق ليختبره فى ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان . كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] . وكذلك فى الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيَّق عليه فى الرزق ، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له . قال الله : ﴿ كَلاَّ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ، لا فى هذا ولا فى هذا ، فإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر .

وقوله : ﴿ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ فيه أمر بالإكرام له ، كما جاء فى الحديث الذى رواه عبد الله ابن المبارك ، عن سعيد بن أبى أيوب ، عن يحيى بن سليمان ، عن زيد بن أبى عتاب [١] ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » ثم قال بأصبعه : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » [٢] .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان ، أخبرنا عبد العزيز ـ يعنى ابن أبى حازم ـ حدثنى أبى ، عن سهل ـ يعنى ابن سعد ـ أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » . وقرن [٣] بين إصبعيه : الوسطى والتى تلى الإبهام [٤] .

(١) فى م : « غياث » .

(٢) الزهد لابن المبارك برقم (٦٥٤) ورواه ابن ماجة فى السنن برقم (٣٦٧٩) من طريق ابن المبارك ، وقال البوصيرى فى الزوائد (١٦٥/٣) : « هذا إسناد ضعيف ، يحيى بن سليمان ـ أبو صالح ـ قال فيه البخارى : منكر ، وقال أبو حاتم : مضطرب الحديث، وذكره ابن حبان فى الثقات » .

(٣) فى أ : « وفرق » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٥١٥٠) وهو فى صحيح البخارى برقم (٦٠٠٥) من طريق ابن أبى حازم به .

﴿ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ يعنى : لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض فى ذلك ، ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ ﴾ يعنى : الميراث ﴿ أَكْلاً لَّمًّا ﴾ أى : من أى جهة حصل لهم ، من حلال أو حرام ، ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أى : كثيراً ـ زاد بعضهم : فاحشا .

﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، فقال : ﴿ كَلاَّ ﴾ أى : حقا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى : وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال ، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعنى : لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعد ما يستشفعون [(١)] إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ ، بعدما يسألون أولى العزم من الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم ، حتى تنتهى النوبة إلى محمد ﷺ [(٢)] فيقول : « أنا لها ، أنا لها » . فيذهب فيشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء فيشفعه الله فى ذلك ، وهى أول الشفاعات ، وهى المقام المحمود كما تقدم بيانه فى سورة «سبحان» [(٣)] ،فيجىء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفا .

وقوله : ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ : قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : حدثنا عمر بن حفص بن [(٤)] غياث ، حدثنا أبى ، عن العلاء بن خالد الكاهلى ، عن شقيق ، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها » .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى ، عن عمر بن حفص ، به [(٥)]، ورواه أيضا عن عبد بن حُمَيد ، عن أبى عامر ، عن سفيان الثورى ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق ابن سلمة ـ وهو أبو وائل ـ عن عبد الله بن مسعود ، قوله ولم يرفعه [(٦)] . وكذا رواه ابن جرير ، عن الحسن بن عرفة ، عن مَروان بن معاوية الفزارى ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق ، عن عبد الله ، قوله [(٧)] .

---

(١) فى أ : « يشفعون » .
(٢) فى م : « صلوات الله وسلامه عليه » .
(٣) عند تفسير الآية : ٧٩ .
(٤) فى أ : « نبأنا » .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢) وسنن الترمذى برقم (٢٥٧٣) .
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٥٧٣) .
(٧) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٢٠) .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسَانُ ﴾ أى : عمله وما كان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ، ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴾ أى : وكيف تنفعه الذكرى ؟ ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ يعنى : يندم على ما كان سلف منه من المعاصى ــ إن كان عاصيا ــ ويود لو كان ازداد من الطاعات ــ إن كان طائعا ــ كما قال الإمام أحمد بن حنبل :

حدثنا على بن إسحاق ، حدثنا عبد الله ــ يعنى ابن المبارك ــ حدثنا ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن جبير بن نفير ، عن محمد بن أبى عَميرة ــ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ــ قال : لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هَرِماً فى طاعة الله ، لَحقَرَه يوم القيامة ، ولودَّ أنه يُرَدّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب .

ورواه بَحِيرُ بنُ سَعد ، عن خالد بن مَعْدانَ ، عن عتبة بن عبد ، عن رسول الله ﷺ (١) .

قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ، ﴿ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم ، عز وجل ، هذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين (٢) . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أى : إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده فى جنته ، ﴿ رَاضِيَةً ﴾ أى : فى نفسها ﴿ مَّرْضِيَّةً ﴾ أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها ، ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أى : فى جملتهم ، ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . وهذا يقال لها عند الاحتضار ، وفى يوم القيامة أيضا ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، وكذلك هاهنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية ، فروى الضحاك ، عن ابن عباس : نزلت فى عثمان ابن عفان . وعن بُرَيدة بن الحُصَيب : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب ، رضى الله عنه .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ ، يعنى : صاحبك ، وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا ، ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ .

وروى عنه أنه كان يَقرؤها : « فادخلى فى عبدى وادخلى جنتى ». وكذا (٣) قال عكرمة والكلبى، واختاره ابن جرير ، وهو غريب ، والظاهر الأول ؛ لقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ٦٢]، ﴿ وَأَنَّ مَرَدَّنَا (٤) إِلَى اللَّهِ ﴾ [غافر: ٤٣] أى : إلى حكمه والوقوف بين يديه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدَّشْتكى، حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى

---

(١) المسند (٤/ ١٨٥) .

(٢) فى أ : « والعالمين » . (٣) فى م : « وكذلك » .

(٤) فى م : « وأن مصيرنا » وهو خطأ .

قوله : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ، قال : نزلت وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذا . فقال : « أما إنه سيقال لك هذا » (١).

ثم قال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن يمان ، عن أشعث ، عن سعيد بن جبير قال : قرأت عند النبى ﷺ : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ ، فقال أبو بكر ، رضى الله عنه : إن هذا حسن . فقال له النبى ﷺ : « أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كُرَيْب ، عن ابن يمان ، به . وهذا مرسل حسن (٢) .

ثم قال ابن أبى حاتم : وحدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجزرى ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد بن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خَلْقه (٣) ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر ، ما يدرى من تلاها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِى فِى عِبَادِى . وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ .

رواه الطبرانى عن عبد الله بن أحمد عن أبيه ، عن مَرْوان بن شجاع ، عن سالم بن عجلان الأفطس ، به فذكره (٤) .

وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروى ــ المعروف بشكَّر ــ فى كتاب « العجائب » بسنده عن قُبَاث بن رزين أبى هاشم قال : أسرتُ فى بلاد الروم ، فجمعنا الملك وعَرَض علينا دينه ، على أن من امتنع ضربت عنقه . فارتد ثلاثة ، وجاء الرابع فامتنع ، فضربت عنقه ، وألقى رأسه فى نهر هناك ، فرسب فى الماء ثم طفا على وجه الماء ، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال : يا فلان ، ويا فلان ، ويا فلان ــ يناديهم بأسمائهم ــ قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِى إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِى فِى عِبَادِى . وَادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ . ثم غاص فى الماء ، [قال] (٥) ، فكادت النصارى أن يسلموا ، ووقع سرير الملك ، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام . قال : وجاء الفداء من عند الخليفة أبى جعفر المنصور فخلصنا .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رواحة بنت أبى عمرو الأوزاعى ، عن أبيها : حدثنى سليمان بن حبيب المحاربى ، حدثنى أبو أمامة : أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « قل : اللهم ، إنى أسألك نفساً بك مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك » (٦) .

ثم روى عن سليمان بن زَبْر أنه قال : حديث رواحة هذا واحد أمّه .

آخر تفسير سورة « الفجر » ولله الحمد [والمنة] (٧)

---

(١) ورواه ابن مردويه والضياء المقدسى فى المختارة كما فى الدر المنثور (٨/ ٥١٣) .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/ ١٢٢) ورواه عبد بن حميد وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية كما فى الدر المنثور (٨/ ٥١٣) .

(٣) فى م :« على خلقته » .

(٤) المعجم الكبير (١٠/ ٢٩٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٢٨٥) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) زيادة من م .

(٦) تاريخ دمشق (ص ١٠٠) « تراجم النساء » ط ـ المجمع العربى بدمشق ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ١١٨) من طريق عبد الرحمن بن عبد الغفار ، عن رواحة بنت عبد الرحمن به .

(٧) زيادة من م ، أ .

/ سورة الفجر [٢٩٥ظ]

مكّيّة، وهي تسع وعشرون أو ثلاثون[1] آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أقسم سبحانه بالفجر كما أقسم بالصبح حيث قال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير، ١٨/٨١]. وقيل: المراد به صلاتُه.[2]

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هنّ عشر ذي الحجّة، ولذلك فُسّر ﴿ٱلْفَجْرِ﴾ بفجر عرفةَ أو النحر، أو العشر الأواخر مِن رمضان. وتنكيرُها للتفخيم. وقُرئ: "وَلَيَالِ عَشْرٍ"[3] بالإضافة على أنّ المراد بـ"العشر" الأيّام.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ أي: الأشياءِ كلّها شفعِها ووَترِها، أو شفعِ هذه الليالي ووَترِها، وقد رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فسّرهما بيوم النحر ويوم عرفةَ،[4] ولقد كثُرت فيهما الأقوال،[5] والله تعالى أعلم بحقيقة الحال. وقُرئ بكسر "الواو" وهما لغتان كـ"الحَبْر" و"الحِبْر". وقيل:[6] ﴿ٱلْوَتْرِ﴾ بالفتح في العدد

---

[1] س - أو ثلاثون.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٤.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٢٩/٣.

[4] بلفظ قريب في شعب الإيمان للبيهقي، ٣٠٤/٥ (٣٤٦٨)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٤.

[5] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٤.

[6] وفي هامش م: هذا على ما حكى يونس لغة أهل العالية. وفي الصحاح أنّها لغة أهل الحجاز وأمّا تميم فبالكسر فيهما. «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «وتر».

وبالكسر في الدَّحْل.[١] وقُرئ: "وَالوَتِرِ"[٢] بفتح "الواو" وكسرِ "التاء".

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: يمضي كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر، ٣٣/٧٤] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير، ١٧/٨١]. والتقييد لِما فيه مِن وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفورِ النعمة، أو يُسرى فيه مِن قولهم: "صلّى المقامُ"، أي: صُلّيَ فيه، وحُذِف "الياء" اكتفاءً بالكسر. وقُرئ بإثباتها على الإطلاق[٣] وبحذفها في الوقف خاصّة،[٤] وقُرئ: "يَسْرٍ" بالتنوين كما قُرئ: "والفَجْرٍ"، "والوَتْرٍ"،[٥] وهو التنوين الذي يقع بدلًا مِن حرف الإطلاق.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ﴾... إلخ، تحقيقٌ وتقريرٌ لفخامة شأن المقسَم بها وكونِها أمورًا جليلةً حقيقةً بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول وتنبيهٌ على أنّ الإقسام بها أمر مُعتدٌّ به خليقٌ بأنْ يؤكَّد به الأخبار، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة، ٧٦/٥٦]. وذلك إشارة إمّا إلى الأمور المقسَم بها والتذكير بتأويل ما ذُكر كما مرّ تحقيقه، أو إلى الإقسام بها. وأيًا ما كان فما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الشرف والفضل، أي: هل فيما ذُكر مِن الأشياء قَسَم، أي: مُقسَم به.

﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ يراه حقيقًا بأن يُقسَم به إجلالًا وتعظيمًا. والمراد تحقيق أنّ الكلّ كذلك، / وإنّما أُوثِرت هذه الطريقة هضمًا للحقّ وإيذانًا بظهور الأمر. أو [٢٩٦و] هل في إقسامي بتلك الأشياء إقسامٌ لذي حِجْر مقبولٌ عنده يَعتدّ به ويفعل مثلَه ويُؤكِّد به المقسَم عليه؟ والحِجْر: العقل؛ لأنّه يحجُر صاحبه، أي: يمنعه مِن التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمّي عَقْلًا ونُهْيَةً؛ لأنّه يعقِل ويَنهى، وحصاةً أيضًا

---

[١] وفي هامش م: قال الأصمعي: الدحل: هوّة تكون في الأرض وفي أسافل الأودية، فيها ضِيقٌ ثمّ تتّسع. صحاح. | انظر: الصحاح للجوهري، «دحل».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن هارون ويونس وعديّ، وابن موسى وختن ليث كلاهما عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١٧.

[٣] قرأ بها ابن كثير ويعقوب. النشر لابن الجزري، ١٨٣/٢.

[٤] قرأ بها ابن عامر والكسائي وحمزة وعاصم وخلف. النشر لابن الجزري، ١٨٣/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدينار الأعرابي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣.

مِن الإحصاء وهو الضبط. قال الفرّاء: «يقال: "إنّه لذو حِجر" إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها».[١]

والمُقسَم عليه محذوف وهو "لَيُعَذِّبُنَّ"، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾... إلخ، فإنّه استشهاد بعِلمه عليه السلام بما يدلّ عليه مِن تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه عليه السلام في الطغيان والفساد على طريقة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ الآية [البقرة، ٢٥٨/٢]، وقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء، ٢٢٥/٢٦]، كأنّه قيل: ألم تعلم علمًا يقينيًّا كيف عذّب ربّك عادًا ونظائرَهم، فيُعذِّب هؤلاء أيضًا لاشتراكهم فيما يُوجِبه مِن الكفر والمعاصي.

والمراد بعاد أولادُ عاد بن عُوص بن إرَمَ بن سام بن نوح عليه السلام قومِ هودٍ عليه السلام، سُمُّوا باسم أبيهم كما سمّي بنو هاشم هاشمًا. وقد قيل: لأوائلهم: عاد الأولى ولأواخرهم: عاد الأخيرة.[٢] قال عماد الدين بن كثير: كلّ ما ورد في القرآن خبرُ عادٍ الأولى إلّا ما في سورة الأحقاف.[٣]

وقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لـ﴿عَادٍ﴾ للإيذان بأنّهم عاد الأولى بتقدير مضاف، أي: سبط إرَمَ، أو أهل إرَمَ على ما قيل: مِن أنّ ﴿إِرَمَ﴾ اسم بلدتهم أو أرضهم التي كانوا فيها ويؤيّده القراءة بالإضافة، وأيًّا ما كان فامتناع صرفها للتعريف والتأنيث. وقرئ: "إِرْمَ" بإسكان "الراء" تخفيفًا،[٤] كما قرئ: "بِوَرْقِكُمْ".[٥]

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ صفة لـ﴿إِرَمَ﴾، أي: ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة، ومنه قولهم: "رجل عُمَّدٌ وعُمَّدانٌ" إذا كان طويلًا، أو ذاتِ الخيام والأعمدة حيث كانوا بدويّين أهلَ عُمُد، أو ذاتِ البناء الرفيع، أو ذاتِ الأساطين، على أنّ ﴿إِرَمَ﴾ اسم بلدتهم. وقُرئ: "إِرَمِ ذَاتِ العِمَادِ"،[٦] بإضافة ﴿إِرَمَ﴾ إلى ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

---

١ معاني القرآن للفرّاء، ٢٦٠/٣؛ ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٢/٤.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٤.
٣ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٣٠٣/١.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١٨.
٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن الزُّبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣.

[٢٩٦ظ] والإرَم: العَلَم، أي: بعادٍ أهل أعلام ذات العماد، / على أنّها اسم بلدتهم. وقرئ: "أَرَمَّ ذَاتَ العِمَادِ"،[١] أي: جعلها الله تعالى رميمًا، بدلٌ مِن ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾. وقيل: هي جملة دعائيّة اعترضت بين الموصوف والصفة.[٢]

ورُوي أنّه كان لعادٍ ابنان شديد وشدّاد فملكا وقهرا، ثمّ مات شديد وخَلُص الأمر لشدّاد، فمَلَك الدنيا، ودانَت له ملوكها، فسمع بذِكر الجنّة فقال: "أَبْني مثلَها"، فبنى إرَمَ في بعض صحاري عدَن في ثلاثمائة سنةٍ، وهي مدينة عظيمة، قصورها مِن الذهب والفضّة، وأساطينها مِن الزَّبَرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطَّردة. ولمّا تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمّا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحةً مِن السماء فهلَكوا.

وعن عبد الله بن قِلابةَ أنّه خرج في طلب إبل له فوقَع عليها فحمل ما قدر عليه ممّا ثمّة وبلغ خبرُه معاويةَ فاستحضره فقصّ عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرَمُ ذات العِماد، وسيدخلها رجل مِن المسلمين في زمانك أحمرُ أشقرُ قصيرٌ، على حاجبه خالٌ وعلى عقِبه خالٌ، يخرج في طَلَب إبل له، ثمّ التفت إلى ابن قِلابةَ فقال: هذا والله ذلك الرجل.[٣]

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ صفة أخرى لـ﴿إِرَمَ﴾ أي: لم يُخلَق مِثلهم في عِظَم الأجرام والقوّة، حيث كان طُول الرجل منهم أربعمائة ذراع، وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها ويلقيها على الحيّ فيُهلكهم، أو لم يُخلَق مِثل مدينة شدّاد في جميع بلاد الدنيا. وقُرئ: "لَمْ يَخْلُقْ"[٤] على إسناده إلى الله تعالى.

﴿وَثَمُودَ﴾ عطفٌ على ﴿عَادٍ﴾ وهي قبيلة مشهورة سُمّيت باسم جدّهم ثمودَ أخي جَديس، وهما ابنا عامر بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام وكانوا عربًا

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وشهر بن حوشب وعُبيد بن عُمير وابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١٩.

[٢] القول في اللباب لابن عادل، ٣١٦/٢٠.

[٣] الخبر كلّه بزيادة تفصيل في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٧/٢٩-٣٣١؛ وهو بلفظ جِدّ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّبير وعكرمةَ واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٢.

مِن العاربة يسكنون الحِجر بين الحِجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام كعاد.
﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي: قطعوا صخر الجبال / فاتّخذوا فيها بيوتًا نحتوها [٢٩٧و]
مِن الصخر، كقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء، ١٤٩/٢٦]. قيل: هم أوّل مَن نحَت الجبال والصخور والرُّخام، وقد بنَوا ألفًا وسبعمائة مدينةٍ كلّها مِن الحجارة.[١]

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ وُصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم، أو لتعذيبه بالأوتاد.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ إمّا مجرور على أنّه صفة للمذكورين أو منصوب أو مرفوع على الذمّ، أي: طغى كلّ طائفة منهم في بلادهم، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: بالكفر وسائر المعاصي.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنزل إنزالًا شديدًا على كلّ طائفة مِن أولئك الطوائف عَقيب ما فعلَتْ ما فعلت مِن الطغيان والفساد. ﴿رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: عذاب شديد لا يُدرَك غايته، وهو عبارة عمّا حلّ بكلّ منهم مِن فنون العذاب التي شُرحت في سائر السور الكريمة. وتسميتُه سوطًا للإشارة إلى أنّ ذلك بالنسبة إلى ما أُعدّ لهم في الآخرة بمنزلة السوط عند السيف.

والتعبير عن إنزاله بـ"الصبّ" للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه، فإنّه عبارة عن إراقة شيء مائع أو جارٍ مَجراه في السيلان كالرمل والحبوب وإفراغِه بشدّة وكثرةٍ واستمرارٍ. ونسبتُه إلى "السَّوط" مع أنّه ليس مِن ذلك القبيل باعتبار تشبيهه في نزوله المتتابع المتدارك على المضروب بقطرات الشيء المصبوب.

وقيل: السَّوط: خلطُ الشيء بعضِه ببعض، فالمعنى ما خُلط لهم مِن أنواع العذاب.[٢] وقد فُسِّر بالنصيب وبالشدّة أيضًا؛ لأنّ السَّوط يُطلَق على كلّ منهما لغةً،[٣] فلا حاجةَ حينئذ في تشبيهه بالمصبوب إلى اعتبار تكرُّر تعلُّقه بالمعذَّب، كما في المعنى الأوّل، فإنّ كلّ واحد مِن هذه المعاني ممّا يقبل الاستمرار في نفسه.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٣/٤.
٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣١/٣.
٣ الوجهان في اللباب لابن عادل، ٣٢٢/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ تعليل لِما قبله وإيذان بأنّ كفّار قومه صلّى الله عليه وسلّم سيُصيبهم مثلُ ما أصاب المذكورين مِن العذاب، كما ينبئ عنه التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام. وقيل:[١]
[٢٩٧ظ] هو جواب القسَم وما بينهما اعتراضٌ. / والمِرصاد: المكان يترقّب فيه الرَّصَد،[٢] "مِفعال" مِن "رَصَده" كـ"المِيقات" مِن "وَقّته". وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعُصاة وأنّهم لا يفوتونه.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾... إلخ، متّصل بما قبله، كأنّه قيل: إنّه تعالى بصدَد مراقبة أحوال عباده ومُجازاتهم بأعمالهم خيرًا وشرًّا، فأمّا الإنسان فلا يُهمّه ذلك، وإنّما مَطمَح أنظاره ومَرصَد أفكاره الدنيا ولذائذُها. ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: عامله معاملة مَن يبتليه بالغنى واليسار.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ تفسيريّة، فإنّ الإكرام والتنعيم عين الابتلاء. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أي: فضّلني بما أعطاني مِن الجاه والمال حسبما كنتُ أستحقُّه، ولا يخطر بباله أنّه فَضل تفضّل به عليه ليبلوَه أيشكر أم يكفر، وهو خبر للمبتدأ الذي هو ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، و"الفاء" لِما في ﴿أَمَّا﴾ مِن معنى الشرط، والظرف المتوسِّط على نيّة التأخير، كأنّه قيل: فأمّا الإنسان فيقول ربّي أكرمَنِ وقتَ ابتلائه بالإنعام. وإنّما تقديمُه للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ الإكرام والتنعيم بطريق الابتلاء ليتّضح اختلالُ قوله المحكيّ.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي: وأمّا هو إذا ما ابتلاه ربّه ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ ولا يخطر بباله

---

[١] في هامش م: كواشي. «منه». | الوجه في تفسير الكواشي، ٥٨١ظ.
[٢] في هامش م: جمع "راصد". «منه».

أنّ ذلك ليبلوَه أيصبر أم يجزَع مع أنّه ليس مِن الإهانة في شيء؛ بل التقتير قد يؤدّي إلى كرامة الدارين، والتوسِعةُ قد تُفضي إلى خُسرانهما.

وقرئ: "فَقَدَّرَ"[١] بالتشديد، وقرئ: "أَكْرَمَنِي" و"أَهَانَنِي" بإثبات "الياء"،[٢] و"أَكْرَمَنْ" و"أَهَانَنْ"[٣] بسكون "النون" في الوقف.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن مقالته المحكيّة وتكذيبٌ له فيها في كلتا الحالتين، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المعنى لم أبتَلِهِ بالغنى لكرامته عليّ، ولم أبتلِه بالفقر لهوانه عليّ؛ بل ذلك لمَحض القضاء والقدر.[٤] وحملُ الردع والتكذيب إلى قوله الأخير[٥] بعيدٌ.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ انتقال مِن بيان سوء أقواله إلى بيان سوءِ أفعاله، والالتفاتُ إلى الخطاب للإيذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ تشديدًا للتقريع وتأكيدًا للتشنيع. / والجمع باعتبار معنى الإنسان؛ إذ المرادُ هو الجنس، أي: بل لكم أحوال أشدّ شرًّا ممّا ذُكر وأدلّ على تهالككم على المال حيث يُكرمكم الله تعالى بكثرة المال، فلا تؤدُّون ما يلزمكم فيه مِن إكرام اليتيم بالمَبرّة به. وقرئ: "لَا يُكْرِمُونَ".[٦] [٢٩٨و]

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بحذف إحدى التاءين مِن "تتحاضّون"، أي: لا يحضّ بعضُكم بعضًا ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: على إطعامه. وقُرئ: "تُحَاضُّونَ"[٧] مِن المُحاضّة، وقُرئ: "يَحُضُّونَ" بـ"الياء"[٨] و"التاء".[٩]

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

٢ قرأ البزيّ ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠-٤٠١.

٣ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بخلاف عنه بإثبات الياء فيهما وصلًا. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

٤ القول عن ابن عبّاس وقتادة بمعناه في التفسير البسيط للواحدي، ٢٣/٥١٠؛ وبلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٤٢١؛ وهو بلفظه عن ابن عبّاس في اللباب لابن عادل، ٢٠/٣٢٧.

٥ ما وقفتُ على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

٦ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب سوى الزُّبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الشّيرزي وخلف عن الكسائي وأبي بشر عن عامر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٢٠.

٨ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب سوى الزبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

٩ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر والزبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: المِيراث، وأصله "وُرَاث"، ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: ذا لَمٍّ، أي: جَمْع بين الحلال والحرام، فإنّهم كانوا لا يورِّثون النساء والصبيان ويأكلون أنصباءَهم، أو يأكلون ما جَمَعه المورث مِن حلال وحرام عالمين بذلك.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيرًا مع حرص وشرَهٍ. وقُرئ: "وَيُحِبُّونَ"[١] بـ"الياء".

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾... إلخ استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلًا للردع، أي: إذا دُكَّت الأرض دكًّا متتابعًا حتّى انكسر وذهب كلّ ما على وجهها مِن جبال وأبنية وقصور حين زُلزِلت وصارت هباءً منبثًّا. وقيل: الدكّ: حطّ المرتفع بالبسط والتسوية،[٢] فالمعنى إذا سُوِّيت تسويةً بعد تسوية ولم يبقَ على وجهها شيء حتّى صارت كالصخرة الملساء، وأيًا ما كان فهو عبارة عمّا عَرَض لها عند النفخة الثانية.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: ظهرت آيات قُدرته وآثار قَهْره، مُثِّل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان مِن أحكام هيبته وسياسته. وقيل: جاء أمرُه تعالى وقضاؤه، على حذف المضاف للتهويل.[٣]

﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: مصطفِّين أو ذوي صفوف، فإنّه ينزل يومئذ ملائكة كلّ سماء فيصطفُّون صفًّا بعد صفّ بحسب منازلهم ومراتبهم محدِقين بالجنّ والإنس.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ [الشعراء، ٢٦/٩١]. قال ابن مسعود ومقاتل: «تُقاد جهنّم بسبعين ألف زمام، كلُّ زمام / معه سبعون ألف مَلَك [٢٩٨ظ]

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب سوى الزُّبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/٣٣٠.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/٣٣١، وعزاه إلى الحسن.

يجرُّونها حتّى تُنصَب عن يسار العرش لها تغيُّظ وزفيرٌ».[١] وقد رواه[٢] مسلم في **صحيحه** عن ابن مسعود مرفوعًا.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل مِن ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾ والعامل فيهما قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يتذكّر ما فرّط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه أو بمعاينة عينه، على أنّ الأعمال تتجسّم في النشأة الآخرة، فيبرز كلّ مِن الحسنات والسيّئات بما يُناسبها مِن الصور الحسنة والقبيحة أو يتّعظ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ اعتراض جيء به لتحقيق أنّه ليس يتذكّر حقيقةً لعرائه عن الجدوى بعدم وقوعه في أوانه، و﴿أَنَّىٰ﴾ خبر مقدّم، و﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مبتدأ، و﴿لَهُ﴾ متعلّق بما تعلّق به الخبرُ، أي: ومِن أين يكون له الذكرى وقد فات أوانها. وقيل: هناك مضاف محذوف،[٣] أي: وأنّى له منفعةُ الذكرى.[٤]

والاستدلال به على عدم وجوبِ قَبول التوبة في دار التكليف[٥] ممّا لا وجهَ له، على أنّ تذكّره ليس مِن التوبة في شيء، فإنّه عالم بأنّها إنّما تكون في الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، وهو بدل اشتمال مِن ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، أو استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ منه، كأنّه قيل: ماذا يقول عند تذكُّره، فقيل: يقول:[٦] يا ليتني عمِلت لأجل حياتي هذه أو وقتَ حياتي في الدنيا أعمالًا صالحةً أنتفع بها اليوم. وليس في هذا التمنّي شائبةُ دلالةٍ على استقلال العبد بفعله، وإنّما الذي يدلّ عليه ذلك اعتقاد كونه متمكّنًا مِن تقديم الأعمال الصالحة، وأمّا أنّ ذلك بمَحض قُدرته[٧] أو بخَلْق الله تعالى عند صَرْف قدرته الكاسبة إليه فكلّا.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المحجور قد يتمنّى إن كان ممكنًا منه،[٨] فربّما يُوهِم أنّ مَن صَرَف قدرته إلى أحد طرفَي الفعل يعتقد أنّه محجور مِن الطرف الآخر.

---

١ بلفظ قريب في صحيح مسلم، ٢١٨٤/٤ (٢٨٤٢)؛ وسنن الترمذي، ٧٠١/٤ (٢٥٧٣).

٢ في هامش م: لباب. | والكلام في اللباب لابن عادل، ٣٣٢/٢٠.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤.

٤ التقدير في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٢/٣.

٥ نُقل هذا الاستدلال في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٢/٣.

٦ س - يقول.

٧ س + تعالى.

٨ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٢/٣.

وليس كذلك؛ بل كلّ أحد جازم بأنّه لو صَرَف قدرته إلى أيّ طرف كان مِن أفعاله الاختياريّة لحَصَل، وعلى هذا يدور / فَلَك التكليف وإلزامُ الحجّة. [٢٩٩و]

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يكون ما ذُكر مِن الأحوال والأقوال ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ "الهاء" لله تعالى، أي: لا يتولّى عذابَ الله تعالى ووثاقه أحد سواه؛ إذ الأمر كلّه له أو للإنسان، أي: لا يعذِّب أحدٌ مِن الزبانية مثلَ ما يُعذِّبونه. وقُرئ الفعلان على البناء للمفعول، والضمير للإنسان أيضًا.

وقيل: المراد به أُبيّ بن خَلَف، أي: لا يُعذَّب أحدٌ مثلَ عذابه، ولا يُوثَق بالسلاسل والأغلال مثلَ وَثاقه لتناهيه في الكفر والعِناد.[١] وقيل: لا يُحمَّل عذابَ الإنسان أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام، ٦/١٦٤].[٢]

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ حكاية لأحوال مَن اطمأنّ بذِكر الله عزّ وجلّ وطاعته إثر حكاية أحوال مَن اطمأنّ بالدنيا، وُصِفت بالاطمئنان؛ لأنّها تترقّى في معارج الأسباب والمسبَّبات إلى المبدأ المؤثِّر بالذات فتستقرّ دون معرفته وتستغني به في وجودها وسائر شئونها عن غيرها بالكلّيّة.

وقيل: هي النفس المؤمنة المطمئنّة إلى الحقّ الواصلة إلى ثَلَج اليقين، بحيث لا يُخالِجها شكّ ما. وقيل: هي الآمنة التي لا يستفزُّها خوف ولا حَزَن،[٣] ويؤيّده أنّه قُرئ: "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الآمِنَةُ المُطْمَئِنَّةُ"،[٤] أي: يقول الله تعالى ذلك بالذات كما كلّم موسى عليه السلام، أو على لسان المَلَك عند تمام حساب الناس. وهو الأظهر. وقيل: عند البعث. وقيل: عند الموت.[٥]

---

١ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٤٢٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦.

٢ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦.

٣ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٤٢٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٤.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦.

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى موعده أو إلى أمره ﴿رَاضِيَةٗ﴾ بما أُوتيت مِن النعيم المقيم ﴿مَّرۡضِيَّةٗ﴾ عند الله عزّ وجلّ.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ في زمرة عبادي الصالحين المختصّين بي.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم أو انتظمي في سِلك المقرَّبين واستضيئي بأنوارهم،
فإنّ الجواهر القدسيّة كالمرايا المتقابلة. وقيل: المراد بـ﴿ٱلنَّفۡسُ﴾ الروح،
والمعنى فادخلي أجساد عبادي التي فارقتِ عنها / وادخلي دارَ ثوابي.[١] وهذا [٢٩٩ظ]
يؤيّد كون الخطاب عند البعث. وقُرئ: "فَادْخُلِي فِي عَبْدِي"،[٢] وقُرئ: "فِي جَسَدِ
عَبْدِي".[٣] وقيل: نزلت في حمزةَ بن عبد المطلب. وقيل: في خُبَيْب بن عَديّ
رضي الله عنهما. والظاهر العموم.[٤]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفجر في الليالي العَشر غُفر له، ومَن قرأها في سائر الأيّام كانت له نورًا يوم القيامة».[٥]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٣/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٤.

٤ القولان وترجيح العموم في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٠/٢٩ (الفجر، ١/٨٩)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٧٨/٤ (الفجر، ١/٨٩)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

٨٩

سُورَةُ الفَجْرِ

مكية أو مدنية، ثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿والفَجرِ﴾ أي: فجرِ كُلّ يوم، ٢ ـ ﴿ولَيالٍ عَشْرٍ﴾ أي: عشر ذِي الحِجّة، ٣ ـ ﴿والشَّفعِ﴾: الزوجِ ﴿والوَتْرِ﴾، بفتح الواو وكسرها ....

سُورَةُ الفَجْرِ

قولُهُ: (أي: فَجرِ كُلِّ يَومٍ) أو فجرِ عرفةَ، أو النَّحرِ، وعن ابن عبَّاسٍ[1] قال: الفجرُ: (المحرَّمُ)[2] هو فَجرُ السَّنَةِ.

قولُهُ: (عَشرِ ذِي الحِجَّةِ) كما أخرجَهُ أحمدُ والنَّسائيُّ عن جابرٍ مرفوعاً[3]، وعن ابن عبَّاسٍ: أنَّه العَشرُ الأواخرُ من رمضانَ[4].

قولُهُ: (الزَّوجِ) وصحَّ عنه ﷺ: «أنَّ الشَّفعَ يومُ الأضحَى، والوترَ يومُ عرَفَةَ»[5].

قولُهُ: (وكَسرِهَا) حمزةُ والكسائيُّ[6].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٩٤)، وابن عساكر «تاريخ دمشق» (١/ ٥٢).

(٢) أي: شهر المحرم.

(٣) روى النسائي في «السنن الكبرى» (١١٦٠٨)، وأحمد في «مسنده» (١٤٥١١)، والحاكم في «المستدرك» (٧٥١٧) عن جابر، قال رسول الله ﷺ: ﴿والفجر وليال عشر﴾، قال: «عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي.

(٤) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٨/ ٥٠٢).

(٥) جاء ذلك في حديث جابر المتقدم.

(٦) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٩).

لغتانِ: الفردِ، ٤ ـ ﴿واللَّيلِ إذا يَسْرِ﴾ مُقبلاً ومُدبرًا ـ ٥ ـ ﴿هَل في ذلِكَ﴾ القسمِ ﴿قَسَمٌ لِذِي حِجرٍ﴾: عقل؟ وجوابُ القسم محذوف أي: لتُعذَّبُنَّ، يا كُفّارَ مكّة.

٦ ـ ٧ ـ ﴿أَلَم تَرَ﴾: تعلمْ ـ يا مُحمّدُ ـ ﴿كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ، إرَمَ﴾ ـ هي عادٌ الأُولى. فإرَمَ: عطف بيان أو بدل، ومُنِعَ الصرفَ للعلميّة والتأنيث ـ ﴿ذاتِ العِمادِ﴾، أي: الطولِ، كان طول الطويل منهم أربعَمِائَةِ ذراع، ٨ ـ ﴿الَّتي لَم يُخلَقْ مِثلُها في البِلادِ﴾ في بطشهم وقُوّتهم، ٩ ـ ﴿وثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا﴾: قطعوا ﴿الصَّخرَ﴾: جمع صخرة واتّخذوها بُيوتًا ﴿بِالوادِ﴾: وادي القُرى، ١٠ ـ ﴿وفِرعَونَ ذِي الأوتادِ﴾ ـ كان يَتِدُ أربعة أوتاد، يشدّ إليها يدَي ورجلَي مَن يُعذّبه ـ ١١ ـ ١٢ ـ ﴿الَّذِينَ طَغَوا﴾: تجبّروا ﴿في البِلادِ، فأكثَرُوا فِيها الفَسادَ﴾: القتل وغيره، ١٣ ـ ١٤ ـ ﴿فصَبَّ علَيهِم رَبُّكَ سَوطَ﴾: نوعَ

قولُهُ: (الفَردِ) يعني: الأشياءَ كلَّها شفعَها ووترَها، أو شَفْعَ الصَّلاةِ ووترَها.

قولُهُ: (مُقبِلاً ومُدبِراً) والتَّقييدُ بذلك لما في التَّعاقُبِ من قوَّةِ الدَّلالةِ على كمالِ القُدرةِ ووفورِ النِّعمَةِ، وحذفُ الياءِ للاكتفاءِ بالكسرةِ تخفيفاً، وقد خصَّهُ نافعٌ وأبو عَمرو بالوقفِ لمراعاةِ الفواصلِ، ولم يحذِفها ابنُ كثيرٍ أصلاً[1].

قولُهُ: (القَسَمِ) أي: إقسامِ الله، أو المقسَمِ به.

وقولُهُ تعالَى: (﴿قَسَم﴾) أي: حَلِفٌ، أو محلوفٌ به.

قولُهُ: (عَقْلٍ) يعتبرهُ ويؤكِّدُ به ما يريدُ تحقيقَهُ، وسمِّيَ العقلُ به؛ لأنَّهُ يحجرُ عمَّا لا ينبغِي، كما سمِّي عقلاً ونُهيةً.

قولُهُ: (مَحذُوفٌ) أو: ﴿إنَّ رَبَّكَ لَبالمِرصَادِ﴾.

قولُهُ: (عَادٌ الأُولَى) يعني: أولادَ عادِ بن عوص بن إِرَمَ بن سامِ بن نُوحٍ، قومِ هودٍ عليهِ السَّلام سمُّوا باسمِ أبيهِم.

قولُهُ: (عَطفُ بَيانٍ) على تقديرِ مُضافٍ؛ أي: سِبطَ إِرَمَ.

قولُهُ: (أي: الطولِ) أي: القُدودِ الطِّوالِ.

قولُهُ: (وغيرِهِ) من الكُفرِ والظُّلمِ.

قولُهُ: (نَوع) قيل: شُبِّهَ بالسَّوطِ ما أُحلَّ بهم في الدُّنيا؛ إشعاراً بأنَّه بالقياسِ إلى ما أعدَّ لهم في الآخرَةِ من العذابِ، كالسَّوطِ إذا قيسَ إلى السَّيفِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨٣).

﴿عَذابٍ ـ إنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرصادِ﴾ يرصد أعمال العباد، فلا يفوته منها شيء ليُجازيَهم عليها.

١٥ ـ ١٦ ـ ١٧ ـ ﴿فأمّا الإنسانُ﴾ الكافر، ﴿إذا ما ابتلاهُ﴾: اختبره ﴿رَبُّهُ فأكرَمَهُ﴾ بالمال وغيره ﴿ونَعَّمَهُ، فيَقُولُ: رَبِّيَ أكرَمَنِ. وأمّا إذا ما ابتلاهُ فقَدَرَ﴾: ضيّق ﴿عليهِ رِزقَهُ، فيَقُولُ: رَبِّيَ أهانَنِ. كَلّا﴾: ردعٌ، أي: ليس الإكرامُ بالغنى والإهانةُ بالفقر، وإنما هما بالطاعة والمعصية. وكُفّار مكّة لا يتنبهون لذلك. ﴿بَل لا يُكرِمُونَ اليَتِيمَ﴾ لا يُحسنون إليه مع غِناهم، أو لا يُعطونه حقّه من الميراث، ١٨ ـ ١٩ ـ ﴿ولا يَحُضُّونَ﴾ أنفسَهم ولا غيرهم ﴿علَى طَعامِ﴾ أي: إطعام ﴿المِسكِينِ، ويأكُلُونَ التُّراثَ﴾: الميراثَ ﴿أكلاً لَمًّا﴾ أي: شديدًا، للَمِّهِم نصيبَ النِّساء والصِّبيان من المِيراث مع نصيبهم منه، أو مع مالِهم، ٢٠ ـ ﴿ويُحِبُّونَ المالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا، فلا يُنفقون. وفي قراءة بالفَوقانيّة، في الأفعال الأربعة.

قولُهُ: (يَرصُدُ) أي: بالمكانِ الذي يترتَّبُ فيه الرَّصدُ، وفي «القامُوسِ»[1]: المِرصاد: الطَّريقُ، والمكانُ يُرصَدُ فيه العدُوُّ؛ أي: يُرْقَب، وهو تمثيلٌ لإرصادِهِ العُصاةَ بالعِقابِ، ولذا فسَّرَهُ ابنُ عبَّاسٍ[2] بقولِهِ: أي: يسمَعُ ويَرى.

قولُهُ: (الكَافِرُ) قالَ ابنُ جريجٍ: نزلَتْ في أُميَّةَ بن خلفٍ، أخرجَهُ ابنُ أبي حاتِمٍ، كذا في «المبهمات»[3].

قولُهُ: (اختبَرَهُ) بالغِنى واليُسرِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِ) كالجاهِ والصِّحَّةِ.

قولُهُ: (ضَيَّقَ) وقرأ الشَّاميُّ بالتَّشديدِ[4].

قولُهُ: (لَيسَ الإِكرَامُ) أي: المعتبَرُ الإلهيُّ.

قولُهُ: (المِيرَاثِ) وأصلُهُ: وراثٌ.

قولُهُ: (أي: شَدِيداً) أو إذا جمعَ بين الحَلالِ والحرامِ.

قولُهُ: (أو مَعَ مَالِهِم) أو يأكلونَ ما جمعهُ المورِّثُ من حلالٍ وحرامٍ عالمينَ بذلك.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ) لغيرِ البصريِّ[5].

قولُهُ: (فِي الأَفعَالِ الأَربَعَةِ) إلا أنَّ الكوفيَّ: ﴿تَحَاضُّونَ﴾ بحذفِ إحدى التَّاءينِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٢٨٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٤١١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩١٢).

(٣) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ١١٧).

(٤) انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٩)، و«تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٦١٢).

(٥) هذا وما بعده، انظر: «العنوان في القراءات السبع» (ص: ٢٠٩).

٢١ - ﴿كَلَّآ﴾: ردعٌ لهم عن ذلك، ﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾: زُلزِلَتْ حتى ينهدمَ كُلّ بناء عليها وينعدم، ٢٢ - ﴿وجاءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمرُه ﴿والمَلَكُ﴾ أي: الملائكة ﴿صَفًّا صَفًّا﴾: حالٌ أي: مُصطفّين أو ذوي صُفوف كثيرة، ٢٣ - ﴿وجِيءَ يَومَئذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تُقاد بسبعينَ ألفَ زِمامٍ، كُلُّ زِمام بأيدي سبعينَ ألفَ ملَك، لها زفير وتغيّظ، ﴿يَومَئذٍ﴾: بدلٌ من «إذا»، وجوابُها: ﴿يَتَذَكَّرُ الإنسانُ﴾ أي: الكافر ما فرّط فيه - ﴿وأَنَّى لَهُ الذِّكرَى﴾؟ استفهامٌ بمعنى النفي، أي: لا ينفعه تذكُّره ذلك - ٢٤ - ﴿يَقُولُ﴾ مع تذكّره: ﴿يا﴾: للتنبيه ﴿لَيتَنِي قَدَّمتُ﴾......................................

قولُهُ: (رَدعٌ) وما بعدَهُ وعيدٌ عليه.

قولُهُ: (كُلُّ بِنَاءٍ) بل كُلِّ جبلٍ، والمعنى: دكًّا بعد دكٍّ.

قولُهُ: (أي: أَمرُهُ) أو ظهرَتْ آياتُ قُدرتِهِ وآثارُ قهرِهِ وعظمَتِهِ، مثَّل ذلك بما يظهَرُ عندَ حُضورِ السُّلطانِ من آثارِ هيبتِهِ وسياستِهِ، ويمكنُ أن يكونَ كنايةً عن تجلّي الرَّبِّ بوصفِ القهاريَّةِ والجلاليَّةِ.

قولُهُ: (أي: المَلائِكَةُ) يعني: المرادُ بـ﴿المَلَكُ﴾: الجنسُ.

قولُهُ: (ذَوِي صُفُوفٍ) بحسَبِ منازِلِهم.

قولُهُ: (تُقَادُ) رَوى مسلِمٌ بمعناهُ(١).

قولُهُ: (أي: الكَافِرُ) الظَّاهرُ أنَّه أعمُّ؛ يعني: يتذكَّرُ معاصيَهُ، أو يتَّعظُ؛ لأنَّه يعلمُ قُبحها فيندَمُ عليها.

قولُهُ: (أي: لا يَنفَعُهُ) فالتَّقديرُ: أنّى له منفعةُ الذِّكرى؛ لئلا يُناقضَ ما قبله، قالَ القاضي(٢): واستُدلَّ به على عدمِ وجوبِ قبولِ التَّوبةِ، فإنَّ هذا التَّذكُّرَ توبةٌ غير مقبولَةٍ، قلتُ: من شرائطِ صحَّةِ التَّوبةِ وجودُ الغَيبِ وعدمُ العيانِ، فإنَّ توبَةَ اليأسِ غيرُ مقبولةٍ بالإجماعِ، وقالَ ﷺ: «إنَّ اللهَ يقبلُ توبَةَ العَبدِ ما لَم يُغرغِر»(٣)، وقالَ تعالَى: ﴿ولَيسَتِ التَّوبَةُ لِلَّذِينَ يَعمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [النساء: ١٨]، وأمَّا وجوبُ القَبولِ فليسَ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ، نعم إذا وُجدت وتحقَّقَت شرائطُ صحَّةِ التَّوبةِ يمتنعُ عدمُ القبُولِ للزُومِ التَّخلُّفِ في خبرِهِ تعالى بقولِهِ: ﴿وهوَ الذي يَقبَلُ التَّوبَةَ عن عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥]، والله تعالى أعلمُ.

---

(١) روى مسلم (٢٨٤٢) عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣١١).

(٣) رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد في «مسنده» (٦١٦٠)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٦٠٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٦٥٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

الخيرَ والإيمان ﴿لِحَيَاتِي﴾ الطيّبة في الآخرةِ، أو وقتِ حياتي في الدنيا.

٢٥ ـ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ﴾، بكسر الذال، ﴿عَذَابَهُ﴾ أي: اللهِ ﴿أَحَدٌ﴾ أي: لا يَكِلُه إلى غيره، ٢٦ ـ ﴿وَ﴾ كذا ﴿لا يُوثِقُ﴾، بكسر الثاء، ﴿وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾. وفي قراءة بفتح الذال والثاء، فضمير «عذابَه» «ووثاقَه» للكافر، والمعنى: لا يُعذَّب أحدٌ مِثلَ تعذيبه، ولا يُوثَق مثلَ إيثاقه.

٢٧ ـ ﴿يا أَيَّتُها النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ﴾: الآمنةُ ـ وهي المُؤمنة ـ ٢٨ ـ ﴿ارجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ ـ يقال لها ذلك عند الموت ـ أي: ارجعي إلى أمره وإرادته، ﴿رَاضِيَةً﴾ بالثواب ﴿مَرضِيَّةً﴾ عِند الله بعملك، أي: جامعةً بين الوصفين ـ وهما حالان ـ ويقال لها في القِيامة: ٢٩ ـ ﴿فادخُلِي في﴾ جُملة ﴿عِبادِي﴾ الصالحين ٣٠ ـ ﴿وادخُلِي جَنَّتِي﴾ معهم.

قولُهُ: (الخَيرَ والإِيمَانَ) الأولى: تقديمُ الإيمانِ.

قولُهُ: (الطَّيِّبَةِ)؛ أي: لحياتي هذه، قالَ القاضي[1]: وليسَ في هذا التَّمنِّي دَلالَةٌ على استقلالِ العَبدِ بفعله، فإنَّ المحجورَ عن الشَّيءِ قد يتمنَّى أن كان مُمكَّناً فيه، قلت: قالَ تعالَى: ﴿وَمَن كانَ في هَذِهِ أَعمَى فَهوَ في الآخِرَةِ أَعمَى﴾ [الإسراء: ٧٢].

قولُهُ: (وفِي قِرَاءَةٍ) للكِسائيِّ[2].

قولُهُ: (الآمِنَة) التي لا يستفِزُّها خَوفٌ ولا حُزنٌ، وقد قرئَ بهما[3]، و﴿المطمَئِنَّة﴾ التي اطمأَنَّتْ بذكرِ اللهِ، أو إلى الحقِّ، وقيل: هي العارِفَةُ بالله تعالى التي لا تصبرُ عنه طَرفَةَ عينٍ، وقيل: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفسُ المطمَئِنَّةُ﴾ بالدُّنيا ﴿ارجِعِي إلى رَبِّكِ﴾ بتركِها.

قولُهُ: (إلى أَمرِهِ) أو موعدِهِ بالموتِ، أو بالبعثِ.

قولُهُ: (جُملَة) أو أجسادِ عبادِي التي فارَقْتِ عنها، والله أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٥/ ٣١١).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٨٥).

(٣) أي: (يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة)، وهي قراءة شاذة، ونسبت لأبي بن كعب رضي الله عنه، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ١٧٤).

سُورَةُ الفَجْرِ

مكيةٌ في قول الجمهور، وقال عليُّ بن أبي طلحة: مدنيةٌ. وآيها اثنتان وثلاثون آيةً في الحجازي، وثلاثون في الكوفي والشامي، وتسعٌ وعشرون في البصري[1].

ولَمَّا ذَكَرَ سبحانه فيما قبلها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾ و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾ أتبعه تعالى بذِكْرِ الطوائف المكذِّبين من المتجبِّرين الذين وجوههم خاشعة، وأشار جلَّ شأنه إلى الصنف الآخر الذين وجوههم ناعمة بقوله سبحانه فيها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾. وأيضاً فيها ما يتعلَّقُ بأمر الغاشية ما فيها.

وقال الجلال السيوطيُّ: لم يظهر لي في وجه ارتباطها سوى أنَّ أوَّلها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها، أو على ما تضمَّنته من الوعد والوعيد، هذا مع أنَّ جملة «ألم تر كيف فعل ربك» مشابِهةٌ لجملة «أفلا ينظرون»[2]. وهو كما ترى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١﴾ أقسم سبحانه بالفجر، كما أقسم عزَّ وجلَّ بالصبح في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] فالمراد به الفجر المعروف كما روي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وابن الزبير وغيرهم رضي الله عنهم. وقيل: المراد عموده وضوءُه الممتدُّ.

---

(١) جاء في هامش الأصل: اختلافها أربع آيات: «ونعَّمه» «فقدر عليه رزقه» كلتاهما حجازي، «بجهنم» حجازي شامي، «في عبادي» كوفي.

(٢) تناسق الدرر ٩٥-٩٦.

وأصله شَقُّ الشيءِ شَقًّا واسعاً، وسُمِّيَ الصبحُ فجراً لكونه فاجرَ الليل، وهو كاذبٌ: لا يتعلَّقُ به حُكْمُ الصوم والصلاة، وصادقٌ: به يتعلَّقُ حكمهما، وقد تكلَّموا في سبب كلٍّ بما يطول، وتقدَّم بعضٌ منه.

ولعلَّ المراد به هنا الصادقُ، فهو أحرى بالقَسَم به، والمراد به عند كثيرٍ جنسُ الفجر، لا فجرُ يومٍ مخصوص، وعن ابن عباس ومجاهد: فجرُ يوم النحر، وعن عكرمة: فجرُ يوم الجمعة، وعن الضحاك: فجرُ ذي الحجة، وعن مقاتل: فجرُ ليلة جَمْعٍ.

وأخرج سعيد بن منصور والبيهقيُّ في «الشعب» عن ابن عباس أنه قال: هو فجرُ المحرَّم فجر السنة[1]. وروي نحوه عن قتادة.

وعن الحبر أيضاً أنه النهار كلُّه.

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً أنه قال: يعني صلاةَ الفجر[2]. وروي نحوه عن زيد بن أسلم. فهو إما على تقدير مضافٍ، أو على إطلاقه على الصلاة مجازاً، وهو شائعٌ.

وقيل: المراد فَجْرُ العيون من الصخور وغيرها.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ هُنَّ العشر الأُوَلُ من الأضحى كما أخرجه الحاكم وصححه وجماعة عن ابن عباس[3]، وروي عن ابن الزبير ومسروق ومجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم، وأخرج ذلك أحمد والنسائيُّ والحاكم وصححه والبزار وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» عن جابرٍ يرفعه[4].

---

(١) شعب الإيمان (٣٧٧١).

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٤٤.

(٣) المستدرك ٢/ ٥٢٢، وأخرجه أيضاً الطبري ٢٤/ ٣٤٥-٣٤٦.

(٤) أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤٠٨٦) و(١١٦٠٨)، وابن جرير ٢٤/ ٣٤٨، والبيهقي في الشعب (٣٧٤٣)، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطيُّ في الدر المنثور ٦/ ٣٤٥.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٧: رواه البزار وأحمد، ورجالهما رجال الصحيح غير عياش بن عقبة وهو ثقة.

ولها من الفضل ما لها، وقد أخرج أحمد والبخاريُّ عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام فيهنَّ العملُ أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ وأفضلُ من أيام العشر» قيل يا رسول الله: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ جاهدَ في سبيل الله بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»[(١)].

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس: أنهنَّ العشرُ الأواخر من رمضان[(٢)]. وروي أيضاً عن الضحاك، بل زعم التبريزيُّ الاتفاقَ على أنهنَّ هذه العشر، وأنه لم يخالف فيه أحدٌ، واستدلَّ له بعضُهم بالحديث المتفق على صحته، قالت عائشة ﵂: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العَشْرُ ـ تعني العشر الأواخر من رمضان ـ شَدَّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله[(٣)]. وتعقَّبه بعضُهم بأنَّ ذلك محتمِلٌ لأنْ يَحْظَى عليه الصلاة والسلام بليلة القدر؛ لأنها فيها، لا لكونها العشرَ المرادةَ هنا.

وعن ابن جريج: أنهنَّ العشر الأول من رمضان.

وعن يمان وجماعة: أنهنَّ العشرُ الأول من المحرَّم، وفيها يومُ عاشوراء، وقد وَرَدَ في فضله ما ورد.

أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس قال: قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ واليهودُ تصومُ يوم عاشوراء، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما هذا اليوم الذي تصومونه» قالوا: هذا يومٌ عظيمٌ، أنجى الله تعالى فيه موسى، وأغرق آل فرعون فيه، فصامه موسى عليه السلام شكراً. فقال رسول الله ﷺ: «فنحن أحقُّ بموسى منكم» فصامه ﷺ، وأمر بصيامه[(٤)].

---

(١) مسند أحمد (١٩٦٨)، وصحيح البخاري (٩٦٩).

(٢) الدر المنثور ٦/٣٤٦، وذكره أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية وقال: والصحيح القول الأول.

(٣) أحمد (٢٤١٣١)، والبخاري (٢٠٢٤)، ومسلم (١١٧٤).

(٤) البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠). وهو عند أحمد (٢٦٤٤).

وصحَّ في الصحيحين(١) أنه عليه الصلاة والسلام أرسل غداةَ عاشوراء إلى قرى الأنصار التي حولَ المدينة: «مَنْ كان أصبحَ صائماً فليتمَّ يومه، ومن كان أصبح مفطراً فليصمْ بقيةَ يومه» فكان الصحابةُ بعد ذلك يصومونه ويُصوِّمونه صبيانهم الصغار، ويذهبون بهم إلى المسجد، ويجعلون لهم اللعبة من العِهْن، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطوه إياها حتى يكون الإفطار.

وأخرج أحمد وغيره عن الحبر قال: قال رسول الله ﷺ: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود، وصوموا قبله يوماً وبعده يوماً»(٢).

وجاء في الأمر بالتوسعة فيه على العيال عِدَّةُ أحاديثَ ضعيفة(٣)، لكن قال البيهقيُّ: هي وإن كانت ضعيفة، إذا ضُمَّ بعضُها إلى بعضٍ أحدثَ قوةً(٤).

وأيَّاما كان فتنكيرها للتفخيم، وقيل: للتبعيض؛ لأنها بعضُ ليالي السنة أو الشهر. والتفخيمُ أَوْلَى؛ قيل: ولولا قَصْدُ ما ذُكِرَ كان الظاهرُ تعريفَها كأخواتها؛ لأنها ليالٍ معهودةٌ معيَّنةٌ.

وقَدَّرَ بعضُهم على إرادة صلاة الفجر فيما مرَّ مضافاً هنا، أي: وعبادةِ ليالٍ، ويقال نحوُه فيما بعدُ على بعض الأقوال فيه، وليس بلازمٍ، ولا أثرَ فيه.

وقرأ ابن عباس بالإضافة(٥)، فضبطه بعضُهم: وليالِ عَشْرٍ. بلام دون ياء، وبعضُهم: وليالي عشر بالياء، وهو القياسُ. والمراد: وليالي أيامِ عَشْرٍ، فحُذِفَ

---

(١) البخاري (١٩٦٠)، ومسلم (١١٣٦) من حديث الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ رضي الله عنها.
(٢) أحمد (٢١٥٤)، وأخرجه أيضاً ابن خزيمة (٢٠٩٥)، والبيهقي ٤/ ٢٨٧.
(٣) منها ما أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٩٧٣) و(٩٧٤) من حديث ابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما، ثم قال: ولا يثبت هذا الحديث عن رسول الله ﷺ في حديث مسند. وقال الدارقطني في الأفراد بعد أن أخرجه من حديث ابن عمر: إنما يعرف هذا عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر من قوله. ينظر الأمالي المطلقة لابن حجر ص ٢٨-٣٠، وينظر كذلك تخريج هذا الحديث والكلام عليه في حاشية كشاف القناع ٥/ ٣٢٢.
(٤) شعب الإيمان بعد الحديث (٣٧٩٥).
(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٦٧.

الموصوفُ وهو المعدودُ، وفي مثل ذلك يجوزُ التاء وتَرْكُها في العدد، ومنه: «وأتْبعَه بستٍّ من شوال»[(١)]، وما حكاه الكسائيُّ: صُمْنا من الشهر خمساً. والمرجِّحُ للترك هاهنا وقوعُهُ فاصلةً.

وجُوِّزَ أن تكونَ الإضافةُ بيانيةً، وهو خلاف الظاهر.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ هما على ما في حديث جابر المرفوع الذي أشرنا إليه فيما تقدم: «يوم النحر ويوم عرفة».

وقال الطيبيُّ: رُوِّينا عن الإمام أحمد والترمذي عن عمران بن حصين أنَّ رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الشفع والوتر، فقال: «الصلاة بعضُها شَفْعٌ وبعضُها وَتْر»[(٢)] ثم قال: هذا هو التفسيرُ الذي لا محيد عنه. انتهى.

وقد رواه عن عمران أيضاً عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي حاتم [والحاكم] وصححه[(٣)]، لكن في «البحر»[(٤)] أنَّ حديث جابر أصحُّ إسناداً من حديث عمران بن حصين.

ووراء ذلك أقوالٌ كثيرةٌ، فأخرج عبد بن حميد[(٥)] عن الحسن أنه قال: أقسمَ ربُّنا بالعَدَدِ كُلِّه، منه الشفعُ ومنه الوتر.

وأخرج عبد الرزاق[(٦)] عن مجاهد أنه قال: الخلقُ كلُّه شَفْعٌ ووتر، فأقسم سبحانه بخلقه.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١١٦٤)، وأبو داود (٢٤٣٣)، والترمذي (٧٥٩)، وابن ماجه (١٧١٦) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(٢) سيأتي تخريجه لاحقاً.

(٣) الدر المنثور ٦/٣٤٦، وما بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (١٩٩١٩)، وسنن الترمذي (٣٣٤٢)، وتفسير الطبري ٢٤/ ٣٥٤، والمستدرك ٢/ ٥٢٢، وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن عمران.

(٤) ٨/ ٤٦٨.

(٥) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٦.

(٦) في تفسيره ٢/ ٣٦٩.

وأخرج ابن المنذر وجماعة[١] عنه أنه قال: الله تعالى الوَتْرُ، وخَلْقُهُ سبحانه الشفع: الذَّكَرُ والأنثى.

وروي نحوه عن أبي صالحٍ ومسروق، وقرأا: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقيل: المراد شَفْعُ تلك الليالي وَوَتْرُها.

وقيل: الشَّفْعُ أيامُ عادٍ، والوتر لياليها.

وقيل: الشفع أبوابُ الجنة، والوتر أبواب النار.

وقيل غيرُ ذلك، وقد ذكر في كتاب «التحرير والتحبير» مما قيل فيهما سِتَّةً وثلاثين قولاً.

وفي «الكشاف»[٢]: قد أكثروا في الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناسَ ما يقعان فيه، وذلك قليلُ الطائل جديرٌ بالتلهِّي عنه.

وقال بعض الأفاضل: لا إشعار للفظ الشفع والوتر بتخصيص شيءٍ مما ذكروه وتعيينه، بل هو إنما يدلُّ على معنًى كُلِّيٍّ متناولٍ لذلك، ولعلَّ مَنْ فسَّرهما بما فسَّرهما لم يَدَّعِ الانحصارَ فيما فسَّر به، بل أفرد بالذكر من أنواع مدلولهما ما رآه أظهرَ دلالةً على التوحيد، أو مدخلاً في الدين، أو مناسبةً لما قبلُ أو لما بعدُ، أو أكثر منفعةً موجبةً للشكر، أو نحو ذلك من النُّكات، وإذا ثبت من الشارع عليه الصلاة والسلام تفسيرُهما ببعض الوجوه، فالظاهرُ أنه ليس مبنيًّا على تخصيص المدلول، بل واردٌ على طريق التمثيل بما رأى في تخصيصه بالذكر فائدةً معتدًّا بها، فحينئذٍ يجوز للمفسِّر أن يحملَ اللَّفظَ على بعضٍ آخر من محتملاته لفائدةٍ أخرى. انتهى.

وهو ميلٌ إلى أنَّ «أل» فيهما للجنس لا للعهد، والظاهرُ أنَّ ما تقدَّم من

(١) كما في الدر المنثور ٦/٣٤٦.
(٢) ٤/٢٤٩.

الحديثين من باب القَطْع بالتعيين دون التمثيل، لكن يُشكِلُ أمرُ التوفيق بينهما حينئذٍ، وإذا صحَّ ما قال في «البحر» كان المعوَّلُ عليه حديثَ جابرٍ ﷺ، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأغرُّ عن ابن عباس، وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن بخلافٍ عنه: «والوِتْر» بكسر الواو[1]، وهي لغةُ تميم، والجمهورُ على فَتْحها، وهي لغة قريش، وهما لغتان كالحَبْر والحِبْر بمعنى العالم على ما قال صاحب «المطلع» في الوتر المقابل للشفع، وأما في الوتر بمعنى التِّرَة، أي: الحقد، فالكسرُ هو المسموعُ وحده، والأصمعيُّ حكى فيه أيضاً اللُّغتين.

وقرأ يونس عن أبي عمرو بفتح الواو وكسر التاء[2]، وهو إما لغةٌ، أو نقل حركة الواو في الوقف لما قبلها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ أي: يمضي، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] والظاهر أنه مجازٌ مرسلٌ أو استعارةٌ، ووجهُ الشبه كالنهار.

و«إذا» على ما صرَّح به العلامة التفتازاني في «التلويح» بدلٌ من «الليل»، وخروجُها عن الظرفية مما لا بأس به، أو ظرفٌ متعلِّقٌ بمضافٍ مقدَّرٍ، وهو العَظَمةُ على ما اختاره بعضُهم. والإقسامُ بذلك الوقت أو تقييدُ العظمة به؛ لما فيه من وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة.

أو: يُسْرَى فيه، على ما نقل أبو حيان عن الأخفش وابن قتيبة[3]، كقولهم: صلَّى المقام، أي: صلِّي فيه، على أنه تجوُّزٌ في الإسناد بإسناد ما للشيءِ للزمان كما يُسنَدُ للمكان.

وأيًّاما كان فالمرادُ بالليل جنسُهُ. وقال مجاهدٌ وعكرمةُ والكلبيُّ: المراد به ليلة

(١) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن حمزة والكسائي، والكلام من البحر ٨/ ٤٦٧.
(٢) أي: الوَتِر. ينظر الكشاف ٤/ ٢٩٤، والبحر ٨/ ٤٦٨.
(٣) البحر ٨/ ٤٦٨، وقول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص ٥٢٦.

النحر، وهي يسري الحاجُّ فيها إلى المزدلفة بعد الإفاضة من عرفات. وليس بذاك.

والإقسامُ والتقييدُ على الوجه الأخير لما في السَّير في الليل من نعمة الحفظ من حَرِّ الشمس وشَرِّ قُطَّاع الطريق غالباً.

وحُذفتِ الياءُ عند الجمهور وَصْلاً وَوَقْفاً من آخر «يسر» ـ مع أنها لامُ مضارعٍ غيرِ مجزوم ـ اكتفاءً عنها بالكسرة للتخفيف، ولتتوافق رؤوس الآي، ولذا رُسمتْ كذلك في المصاحف، ولا ينبغي أن يُقال: إنها حُذِفتْ لسقوطها في خَطِّها، فإنه يقتضي أنَّ القراءةَ باتباع الرسم دون روايةٍ سابقةٍ عليه، وهو غيرُ صحيح.

وخَصَّ نافعٌ وأبو عمرو في روايةٍ هذا الحذفَ بالوقف لمراعاة الفواصل[(١)]، ولم يَحذِفْ مطلقاً ابنُ كثير ويعقوب[(٢)].

وفي «تفسير البغوي»: سُئل الأخفشُ عن عِلَّة سقوط ياء «يسر»، فقال: الليل لا يسري، ولكن يُسرَى فيه[(٣)]. وهو تعليلٌ كثيراً ما يُسأَلُ عنه لخفائه، والجواب أنه أراد أنه لَمَّا عُدِلَ عن الظاهر في المعنى وغُيِّرَ عمَّا كان حَقُّهُ معنًى غُيِّر لفظُهُ؛ لأنَّ الشيءَ يَجُرُّ جنسه لإلفه به: إن الطيور على أمثالها تقع[(٤)]، وهذا كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨] أنه لـمَّا عُدِلَ عن «باغية» أُسقطت منه التاء، ولم يقلْ: بَغيَّة، ومثله من بدائع اللغة العربية.

ويمكن التعليل بنحوه على تفسير «يسر» بـ: يمضي؛ لما فيه من العدول عن الظاهر في المعنى أيضاً؛ لما[(٥)] علمت من أنه مجازٌ في ذلك.

وقرأ أبو الدينار الأعرابي: «والفجرِ والوترِ ويسرٍ» بالتنوين في الثلاثة؛ قال ابن خالويه[(٦)]: هذا كما روي عن بعض العرب أنه وَقَفَ على أواخر القوافي بالتنوين،

---

(١) التيسير ص ٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠، وخَصَّهُ بذلك أيضاً أبو جعفر.

(٢) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤١، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٥٧، والكلام منه.

(٤) ذكره الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص٣٦٣، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ٤٤٢.

(٥) قوله: لما، ساقط من (م).

(٦) في القراءات الشاذة ص١٧٣.

وإن كانت أفعالاً أو فيها «أل»، نحو قوله:

أَقِلِّي اللومَ عاذلَ والعتاباً وقولي إنْ أصبتُ لقد أصاباً[1]

انتهى. وهذا كما قال أبو حيانٍ: ذكره النحويون في القوافي المطلقة - يعني المحرَّكة - إذا لم يترنَّمِ الشاعرُ، وهو أحد وجهين للعرب إذا لم يترنَّموا[2]. والوجهُ الآخر الوقف، فيقولون: «العتاب» و«أصاب» كحالهم إذا وقفوا على الكلمة في النثر. وهذا الأعرابيُّ أجرى الفواصل مجرى الوقف، وعاملَها معاملةَ القوافي المطلقة، ويُسمَّى هذا التنوينُ تنوينَ الترنُّم[3]، ولا اختصاصَ له بالاسم، ويغلبُ على ظنِّي أنه قيلَ: يُكتَبُ نوناً، بخلاف أقسام التنوين المختصَّة بالاسم.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلخ تحقيقٌ وتقريرٌ لفخامة الأشياء المذكورة المُقْسَم بها، وكونها مستحقَّةً لأن تُعظَّم بالإقسام بها، فيدلُّ على تعظيم المُقْسَم عليه وتأكيده من طريق الكناية، فذلك إشارةٌ إلى المُقْسَم به. وما فيه من معنى البعد لزيادة تعظيمه، أي: هل فيما ذُكِرَ من الأشياء ﴿قَسَمٌ﴾ أي: مُقْسَمٌ به ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ أي: هل يحقُّ عنده أن يُقْسَم به إجلالاً وتعظيماً، والمراد تحقيقُ أنَّ الكلَّ كذلك، وإنما أُوثرت هذه الطريقةُ هَضْماً للحق وإيذاناً بظهور الأمر، وهذا كما يقول المتكلِّمُ بعد ذِكْرِ دليلٍ واضحِ الدلالة على مُدَّعاه: هل دلَّ هذا على ما قلناه.

وجُوِّزَ أن يكون التحقيق أنَّ ذوي الحجر يؤكِّدون بمثل ذلك المُقْسَم عليه، فيدلُّ أيضاً على تعظيمه وتأكيده، فـ «ذلك» إشارةٌ إلى المصدر، أعني: الإقسام، أي[4]: هل في إقسامي بتلك الأشياء إقسامٌ لذي حِجْر مقبولٌ عنده يعتَدُّ به ويفعلُ مثله ويؤكِّد به المقسَمَ عليه.

---

(١) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٨١٣. وجاء في (م): والعتابن. . . أصابن.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٦٧.
(٣) وقد عاب بعضهم قول النحويين: تنوين الترنم، وقال: ينبغي أن يسموه بـ : تنوين ترك الترنم. الدر المصون ١٠/ ٧٧٨.
(٤) قوله: أي، ساقط من (م).

وحاصل الوجهين فيما يَرْجِعُ إلى تأكيد المُقْسَم عليه واحدٌ، إلا أنَّ الوجهَ مختلفٌ كما لا يخفى، ولعلَّ الأولَ أظهرُ.

والحِجْرُ: العقل؛ لأنه يَحجُرُ صاحبه، أي: يمنعه من التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمّي عقلاً ونُهْيَةً؛ لأنه يَعقِلُ وينهى، وحصاةً من الإحصاء، وهو الضبط. وقال الفراء: يقال: إنه لذو حجر، إذا كان قاهراً لنفسه، ضابطاً لها[١].

والمقسَمُ عليه محذوفٌ، وهو «لَيُعذِّبَنَّ» كما يُنبئ عنه قوله تعالى شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ إلخ فإنه استشهادٌ بعلمه ﷺ بما يدلُّ عليه من تعذيب عادٍ وأضرابهم المشاركين لقومه عليه الصلاة والسلام في الطُّغيان والفساد، على طريقة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٨] وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥].

وقال أبو حيان: الذي يظهرُ أنه محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبله من آخر سورة الغاشية، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ وتقديره: لَإيابُهم إلينا وحسابُهم علينا[٢].

وأخرج ابن المنذر[٣] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ: (وَالْفَجْرِ) إلى قوله سبحانه: (إِذَا يَسْرِ) فقال: هذا قَسَمٌ على أنَّ ربك لبالمرصاد. وإلى أنه هو المقسَمُ عليه ذهب ابن الأنباري.

وعن مقاتل أنه: «هل في ذلك» إلخ، و«هل» بمعنى «إنَّ». وهو باطلٌ روايةً ودرايةً؛ إذ يبقى عليه قَسَمٌ بلا مُقْسَمٍ عليه.

والمراد بعادٍ أولاد عاد بن عاص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، قوم هودٍ عليه السلام، سُمُّوا باسم أبيهم كما سُمِّي بنو هاشم هاشماً، وإطلاقُ الأب على نَسْله مجازٌ شائعٌ، حتى أُلحق بعضُهُ بالحقيقة، وقد قيل لأوائلهم: عادٌ الأولى، ولأواخرهم: عادٌ الآخرة. قال عماد الدين بن كثير: كلما ورد في القرآن خبرُ عادٍ،

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٦٠.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٦٨.

(٣) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٧.

فالمراد بعادٍ فيه عادٌ الأولى، إلا ما في سورة الأحقاف(١). ويقال لهم أيضاً: «إرم» تسميةً لهم باسم جَدِّهم، والتسميةُ بالجدِّ شائعةٌ أيضاً، وهو اسمٌ خاصٌّ بالأُولى، وعليه قول ابن الرقيات:

مـجـداً تـلـيـداً بـنـاهُ أوَّلُـه أدْرَكَ عـاداً وقـبـلـهـا إرمـا(٢)

ونحوه قول زهير:

وآخـريـن تـرى الـمـاذيَّ عـدَّتَـهـم مـن نَـسْـجِ داودَ أو مـا أورثـتْ إرَمُ(٣)

فقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ عَطْفُ بيانٍ لعاد؛ للإيذان بأنهم عادٌ الأولى، وجُوِّزَ أن يكون بدلاً، ومُنِعَ من الصرف للعَلَمية والتأنيث باعتبار القبيلة، وصُرِفَ «عادٌ» باعتبار الحيِّ، وقد يُمنَعُ من الصَّرْف باعتبار القبيلة أيضاً، وقرأ الضحاك بذلك في إحدى الروايتين عنه(٤). ورُجِّحَ اعتبارُ الصَّرْف فيه بخفَّته لسكون وسطه، وقَدَّرَ بعضُهم مضافاً في الكلام، أي: سِبْط إرم، وجُعل إرم عليه اسم أمِّهم، وهو قولٌ فيه حكاه في «القاموس»(٥)، وَوَجْهُ مَنْع الصرف فيه ظاهرٌ، وأبى بعضُهم إلا جَعْلَهُ اسم جَدِّهم، ومعنى كونهم سِبْطه أنهم وَلَدُ ولده، ولا يظهرُ على هذا عِلَّةُ مَنْع صَرْفه، ولعلَّ ذلك هو الذي دعا إلى جَعْله اسمَ أُمِّهم، لكن رأيتُ في تعليقات بعض الأفاضل(٦) على «الحواشي العصامية على تفسير البيضاوي» أنَّ إرمَ إنما مُنِعَ من الصرف ـ سواءٌ كان اسماً للقبيلة أم لجدِّها ـ للعَلَمية والعُجْمة، وقال: إنهما موجودتان في عادٍ أيضاً، إلا أنه لكونه ثلاثيًّا ساكنَ الوسط يجوزُ فيه الأمران؛ الصرفُ وعَدَمُهُ، وزعم أنَّ هذا هو الحقُّ.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ...﴾ [الآية: ٢١]، وينظر البداية والنهاية ١/ ٣٠٣.

(٢) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص١٥٥.

(٣) ديوان زهير ص١٥٨، وجاء في الأصل و(م): إرما. والمثبت من الديوان. قال شارحه: الماذيُّ: الدروع السهلة اللينة.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٦٩.

(٥) مادة (أرم).

(٦) في هامش الأصل: محيي الدين.

وبكونه اسمَ القبيلة قال مجاهد وقتادة وابن إسحاق، ولا حاجة معه إلى تقدير مضافٍ، فقوله تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ صفةٌ لـ «إرم» نفسها، والمراد: ذاتُ القُدود الطِّوال، على تشبيه قاماتهم بالأعمدة، ومنه قولهم: مُعْمَدٌ وعُمُدَّان(١): إذا كان طويلاً، وروي هذا عن ابن عباس ومجاهد.

واشتهر أنه كان قَدُّ أحدهم اثني عشر ذراعاً وأكثر، وفي «تفسير الكواشي»: قالوا: كان طول الطويل منهم أربعَ مئة ذراع، وكان أحدهم يأخذ الصخرةَ العظيمةَ فيقلبها على الحيِّ فيهلكهم.

وعن قتادة وابن عباس في رواية عطاء: المراد: ذاتُ الخيام والأعمدة، وكانوا سيَّارةً في الربيع، فإذا هاج النَّبْتُ رجعوا إلى منازلهم. وقال غير واحد: كانوا بدويين أهلَ عَمَدٍ وخيام يسكنونها حلًّا وارتحالاً.

وقيل: المراد: ذاتُ الرِّفعة، أو: ذات الوقار، أو: ذات الثَّبات وطول العمر، والكلُّ على الاستعارة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ صفةٌ أخرى لها، أي: لم يُخْلَقْ مثلُهم في عِظَم الأجرام والقوة في بلاد الدنيا، وقد سمعتَ ما نُقل عن الكواشي آنفاً، وما ذكر فيه من أنه كان أحدُهم.. إلخ جاءَ في حديثٍ مرفوعٍ أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه عن المقدام بن معد يكرب(٢).

وقيل: إرم: اسمُ مدينةٍ لهم. قال محمد بن كعب: هي الإسكندرية. وقال ابن المسيب والمقبُريّ: هي دمشق.

وقيل: اسمُ أرضهم، وهي بين عُمان وحضرموت، وهي أرض رمالٍ وأحقافٍ، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] وبهذا اعتُرض القول بأنَّ مدينتهم الإسكندرية والقول بأنها دمشق، حيث إنهما ليستا

---

(١) مُعْمَد كمُكْرَم، وعُمُدّان كجُلُبّان.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٤٧، وذكره عن ابن أبي حاتم أيضاً ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وإسناده ضعيف لإبهام الراوي عن المقدام.

من بلاد الأحقاف والرمال، إلا أن يقالَ: ما هنا عادُ الأولى، وما في آية «الأحقاف» عادُ الآخرة، ويلتزمُ عَدَمُ اتحاد منازلهما.

وعلى القول بكونه اسم مدينتهم أو اسم أرضهم، فهو بتقدير مضافٍ لتصحيح التبعية، أي: أهلُ إرَمَ. وقيل: يُقدَّرُ مضافٌ في جانب المتبوع، أي: بمدينة أو بأرضِ عاد إرم، وهو كما ترى، ومَنْعُ الصَّرْف على الوجهين لما سمعتَ.

والأكثرون على أنها اسمُ مدينةٍ عظيمةٍ في أرض اليمن، والوصفان لها، والمرادُ: ذاتُ البناء الرفيع، أو ذاتُ الأساطين التي لم يُخلَقْ مثلُها سَعَةً وحُسْنَ بيوتٍ وبساتين في بلاد الدنيا.

ويُروى أنه كان لعادٍ ابنان: شدَّادٌ وشديدٌ، فملَكَا وقهرا، ثم مات شديدٌ وخلصَ الأمرُ لشدَّاد، فملك الدنيا ودانت له ملوكُها، فسمع بذِكْر الجنة، فقال: أَبْني مِثْلَها، فبنى إرَمَ في بعض صحارى عَدَن في ثلاث مئة سنةٍ، وكان عمره تسعَ مئة سنة، وهي مدينةٌ عظيمةٌ، قصورُها من الذهب والفضة، وأساطينُها من الزَّبَرْجَد والياقوت، وفيها أصنافُ الأشجار والأنهار المُطَّردة. ولَمَّا تمَّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلما كان منها مسيرة يومٍ وليلة، بعث الله تعالى عليهم صيحةً من السماء فهلكوا[1].

وعن عبد الله بن قلابة: أنه خرج في طلب إبلٍ له، فوقع عليها، فحمل ما قدرَ عليه مما ثَمَّ، وبلغ خبرُهُ معاويةَ فاستحضره، فقصَّ عليه، فبعث إلى كعبٍ فسأله، فقال: هي إرَمُ ذاتُ العماد، وسيدخلها رجلٌ من المسلمين في زمانك، أحمرُ أشقرُ قصير، على حاجبه خالٌ، وعلى عَقِبه خالٌ، يخرج في طلب إبلٍ له، ثم التفتَ فأبصر ابنَ قِلابة فقال: هذا والله ذلك الرجل[2].

---

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٠.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٥٠. وأخرجه مطولاً أبو الشيخ في العظمة (٩٩٥) وفيه: وعلى عنقه خال، بدل: وعلى عقبه خال. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٤: آثار الوضع عليه لائحة. وقال ابن كثير عند تفسير هذه الآية: هذه الحكاية ليس يصح إسنادها، ولو صح إلى ذلك الأعرابي (يعني عبد الله بن قلابة) فقد يكون اختلق ذلك، أو أنه أصابه نوع =

وخبر شدَّاد المذكور أخوه في الضعف، بل لم تصحَّ روايته كما ذكره الحافظ ابن حجر[١]، فهو موضوعٌ كخبر ابن قلابة.

وروي عن مجاهد أنَّ إرَمَ مصدرُ أَرِمَ يَأْرَمُ: إذا هَلَكَ، فـ «إرم» بمعنى هلاك، منصوبٌ على نحو نَصْبِ المصدر التشبيهيِّ، مضافٌ إلى «ذات»، و«التي» صفةٌ لـ «ذات العماد» مراداً بها المدينة، و«كيف فَعَلَ» في قوة: كيف أهلك، فكأنه قيل: ألم تَرَ كيف أهلك ربُّكَ عاداً، كهلاك ذات العماد التي لم يُخْلَقْ مثلُها في البلاد. وهو قولٌ غريبٌ غيرُ قريب.

وقرأ الحسن: «بعاد إرَمَ» بإضافة عادٍ إلى إرم[٢]، فجاز أن يكون إرم جَدًّا والوصفان لـ «عادٍ»، وأن يكون مدينةً والوصفان لـ «إرم»، وجُوِّزَ أن يكونا لـ «عادٍ».

وقرأ ابن الزبير: «بعادِ أَرِمَ» بالإضافة أيضاً، إلا أنَّ «أَرِمَ» بفتح الهمزة وكسر الراء[٣]. قيل: وهي لغةٌ في المدينة لا غير.

وعن الضحاك أنه قرأ: «بعاد» مصروفاً وغير مصروف «أَرْم» بفتح الهمزة وسكون الراء للتخفيف[٤]، وأصله «أَرِم» كَفَخِذ.

وقرئ: «إرَمِ ذاتِ» بإضافة «إرم» إلى «ذات»[٥]؛ فقيل: الإرَمُ عليه العَلَمُ،

= من الهوس والخبال، فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج، وليس كذلك، وهذا مما يقطع بعدم صحته.

(١) في تخريج أحاديث الكشاف ص١٨٤، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٨/ ٣٥٨.

(٢) القراءة في إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٠، والبحر ٨/ ٤٦٩، وقد ذكر فيهما أن عاداً مصروفة، ووردت هذه القراءة في القراءات الشاذة ص ١٧٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧٨، والكشاف ٤/ ٢٥٠ على أن عاداً فيه مفتوحة ممنوعة من الصرف، ومع ذلك جعلها ابن عطية مضافة، وتعقب السمين في الدر المصون ١٠/ ٧٨٢ ذلك بأنه لو كان مضافاً لوجب صرفه.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٦٩.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٦٩.

(٥) الكشاف ٤/ ٢٥٠، والبحر ٨/ ٤٦٩.

والمعنى: بعادٍ أعلام ذات العماد[1]، وهي مدينتهم، و«التي» صفةٌ لـ «ذات العماد» على الأظهر.

وعن ابن عباس أنه قرأ: «أَرَمَّ» بالتشديد فعلاً ماضياً «ذاتَ» بالنصب على المفعول به[2]، أي: جعل الله تعالى ذاتَ العماد رميماً، ويكون «أرمَّ» ـ على ما في «البحر» ـ بدلاً من «فَعَلَ» أو تبييناً له[3]. والمراد بـ «ذات العماد» عليه، إما عادٌ نفسُها، ويكون فيه وَضْعُ المظهر موضعَ المضمر، والنكتةُ فيه ظاهرةٌ، وإما مدينتهم، ويكون جَعْلُها رميماً ـ أي: إهلاكها ـ كنايةً عن جَعْلهم كذلك.

وقرأ ابن الزبير: «لم يَخْلُقْ» مبنيًّا للفاعل، وهو ضميره عزَّ وجلَّ، مثلُها بالنصب على المفعولية، وعنه أيضاً: «لم نَخْلُقْ» بنون العَظمة[4].

﴿وَثَمُودَ﴾ عَطْفٌ على عاد، وهي قبيلةٌ مشهورةٌ سُمِّيت باسم جَدِّهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، كانوا عَرَباً من العاربة يسكنون الحِجْرَ بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام.

ومَنْعُ الصرف للعَلَمية والتأنيث. وقرأ ابن وثاب بالتنوين[5]، صَرَفَهُ باعتبار الحيِّ، كذا قالوا، وظاهره أنه عربيٌّ، وقد صُرِّحَ بذلك فقيل: هو فَعُولٌ من الثَّمْد: وهو الماء القليل الذي لا مادَّةَ له، ومنه قيل: فلانٌ مَثْمودٌ ثَمَدَتْهُ النساء، أي: قَطَعْنَ مادةَ مائه؛ لكثرة غشيانه لهنَّ، ومثمودٌ إذا كَثُرَ عليه السُّؤَّال حتى نفدتْ مادةُ ماله. وحكى الراغب أنه عجميٌّ[6]، فمَنْعُ الصَّرْف للعَلَمية والعُجْمة.

---

(١) كذا وقعت هذه العبارة في الأصل و(م) ومطبوع البحر، والذي في الكشاف: بعادٍ أهلِ أعلام...

(٢) المحتسب ٢/ ٣٥٩، والبحر ٨/ ٤٦٩.

(٣) البحر ٨/ ٤٦٩.

(٤) القراءة الأولى في القراءات الشاذة ص١٧٣، والكشاف ٤/ ٢٥٠، والبحر ٨/ ٤٦٩. والثانية في البحر ٨/ ٤٦٩.

(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٦٩.

(٦) مفردات الراغب (ثمد).

﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾ أي: قَطَعوا صخرَ الجبال واتخذوا فيها بيوتاً نحتوها من الصَّخر، كقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء: ١٤٩] قيل: أولُ مَنْ نحتَ الحجارةَ والصخور والرخام ثمود، وبنوا ألفاً وسبع مئة مدينة، كلُّها بالحجارة. ولا أظنُّ صحةَ هذا البناء.

﴿بِٱلْوَادِ﴾ هو وادي القُرى. وقرئ بالياء آخر الحروف[١]، والباءُ للظرفية، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «جابوا»، أو بمحذوفٍ هو حالٌ من الفاعل أو المفعول.

وقيل: الباء للآلة، أو السببية، متعلِّقةٌ بـ «جابوا»، أي: جابوا الصَّخْرَ بواديهم، أو بسببه، أي: قطعوا الصخر وشقُّوه وجعلوه وادياً ومحلًّا لمائهم فِعْلَ ذوي القوة والآمال. وهو خلاف الظاهر.

وأيًّا ما كان فالجَوْبُ القَطْعُ، والظاهر أنه حقيقةٌ فيه، تقول: جُبْتُ البلاد أَجُوبها، إذا قَطَعْتَها، قال الشاعر:

ولا رأيتُ قَلُوصاً قبلَها حملتْ   سِتِّينَ وَسْقاً ولا جابَتْ بها بلدا[٢]

ومنه: الجواب؛ لأنه يقطعُ السؤال. وقال الراغب: الجَوْبُ قطعُ الجَوْبة، وهي الغائط من الأرض، ثم يُستعملُ في قَطْع كلِّ أرضٍ. وجوابُ الكلامِ هو ما يقطَعُ الجَوْبَ فَيَصِلُ من فَمِ القائل إلى سَمْعِ المستمع، لكنه خُصَّ بما يعودُ من الكلام دون المبتدأ من الخطاب[٣]. انتهى، فاختر لنفسك ما يحلو.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ وُصِفَ بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربون أوتادها في منازلهم، أو لأنه كان يَدُقُّ للمعذَّبِ أربعةَ أوتادٍ، ويشدُّهُ بها مبطوحاً على الأرض، فيعذِّبُهُ بما يريد من ضَرْبٍ أو إحراقٍ أو غيره، وقد تقدَّم الكلام في ذلك[٤].

---

(١) أثبتها وصلاً ورش، وفي الحالين يعقوب وابن كثير بخلاف عن قنبل في الوقف. التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠.

(٢) البيت لأبي وجزة السعدي، وهو في الكامل ١/ ٢٤٤، والأغاني ١٢/ ٢٤٤.

(٣) المفردات (جوب) وفيه: وهي كالغائط. بدل: وهي الغائط.

(٤) عند تفسير الآية (١٢) سمن سورة ﴿صٓ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾﴾ إما مجرورٌ على أنه صفةٌ للمذكورين: عاد ومَنْ بعده، أو منصوبٌ أو مرفوعٌ على الذَّمِّ، أي: طغى كلُّ طاغيةٍ منهم في بلاده، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ أي: بالكفر وسائر المعاصي.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾ أي: أنزل سبحانه إنزالاً شديداً على كلِّ طائفةٍ من أولئك الطوائف، عَقِيبَ ما فعلتْ من الطغيان والفساد.

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: سَوْطاً من عذابٍ، على أنَّ الإضافة بمعنى «من» والعذاب بمعنى المعذَّب به، والمراد بذلك ما حلَّ بكلٍّ منهم من فنون العذاب التي شُرِحتْ في سائر السور الكريمة.

والسَّوْطُ في الأصل مصدرٌ مِن سَاطَ يَسُوط إذا خَلَطَ، قال الشاعر:

أحارثُ إنَّا لو تُساطُ دماؤنا تَزَايَلْنَ حتى لا يَمَسَّ دمٌ دما[1]

وشاع في الجلد المضفور الذي يُضرَبُ به، وسُمِّي به لكونه مخلوطَ الطاقات بعضها ببعض، أو لأنه يَخْلِطُ اللحمَ بالدم، والتعبيرُ عن إنزاله بالصَّبِّ للإيذان بكثرته وتتابعه واستمراره، فإنه عبارةٌ عن إراقة شيءٍ مائعٍ، أو جارٍ مجراه في السيلان كالحبوب والرمل، وإفراغه بشِدَّةٍ وكثرةٍ واستمرار، ونسبتُهُ إلى السوط - مع أنه على ما سمعتَ ليس من هذا القبيل - باعتبار تشبيهه في سُرْعة نزوله بالشيء المصبوب، وتسميةُ ما أُنزل سَوْطاً قيل: للإيذان بأنه على عِظَمه بالنسبة إلى ما أُعدَّ لهم في الآخرة كالسوط بالنسبة إلى سائر ما يُعذَّبُ به.

وفي «الكشف»: إنَّ إضافةَ السَّوط إلى العذاب تقليلٌ لما أصابهم منه، ولا يأبى ذلك التعبيرُ بالصَّبِّ المؤذِنِ بالكَثْرة؛ لأنَّ القِلَّةَ والكَثْرةَ من الأمور النسبية.

وجُوِّزَ أن يُرادَ بالعذاب التعذيبُ، والإضافةُ حينئذٍ على معنى اللام، وأَمْرُ التعبير بالصَّبِّ والتسمية بالسوط على ما تقدم، والآيةُ من قبيل قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ [النحل: ١١٢]. وجُوِّزَ أن تكون الإضافةُ كالإضافة في لُجَين الماء،

---

(١) البيت للمتلمس، وهو في الأصمعيات ص٢٤٥، والشعر والشعراء ١/ ١٨١، ورسالة الصاهل والشاحج ص٥٩٩.

أي: فَصَبَّ عليهم ربك عذاباً كالسَّوْط، على معنى: أنواعاً من العذاب مخلوطاً بعضُها ببعضٍ اختلاطَ طاقات السَّوط بعضها ببعض، وأن يكون السَّوْطُ مصدراً بمعنى المفعول، والإضافةُ كالإضافة في «جرد قطيفةٍ»[١]، أي: فَصَبَّ عليهم ربك عذاباً مسوطاً، أي: مخلوطاً، ومآله: فَصَبَّ أنواعاً من العذاب خُلِطَ بعضُها ببعض.

وفي «الصحاح»: «سَوْطَ عذابٍ» أي: نصيبَ عذاب، ويقال: شِدَّته؛ لأنَّ العذابَ قد يكون بالسوط[٢]. وأراد أنَّ الغرضَ التصوير، والأليقُ بجزالة التنزيل ما تقدم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ تعليلٌ لما قبله، وإيذانٌ بأنَّ كفار قومه ﷺ سيصيبهم مثلُ ما أصاب أضرابهم المذكورين من العذاب، كما يُنبئ عنه التعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام.

والمرصاد: المكانُ الذي يقوم به الرَّصَد ويترقَّبون فيه، مِفْعالٌ من رَصَدَهُ كالميقات من وَقَتَهُ، وفي الكلام استعارةٌ تمثيليةٌ: شُبِّهَ كونه تعالى حافظاً لأعمال العصاة ـ على ما روي عن الضحاك ـ مترقِّباً نقيرها وقِطْميرها، بحيث لا ينجو منه سبحانه أحدٌ منهم، بحالِ مَنْ قَعَدَ على الطريق مترصِّداً لمن يسلُكها، ليأخذه فيوقع به ما يريد، ثم أُطلق لفظُ أحدهما على الآخر.

والآيةُ على هذا وعيدٌ للعصاة مطلقاً، وقيل: هي وعيدٌ للكَفَرة، وقيل: وعيدٌ للعصاة وَوَعْدٌ لغيرهم، وهو ظاهرُ قول الحسن، أي: يَرصُدُ سبحانه أعمال بني آدم.

وجوَّزَ ابن عطية[٣] كونَ المرصاد صيغة مبالغة، كالمِطْعام والمِطْعان. وتعقَّبه أبو حيان بأنه لو كان كما زَعَمَ لم تدخل الباءُ؛ لأنها ليست في مكانِ دخولها،

---

(١) أي: قطيفة انجرد خَمْلُها وخلقَتْ، وهذا من إضافة الصفة للموصوف، ومثله: أخلاق ثياب. ينظر النهاية (جرد)، وفيض القدير ٥/ ٥٢٨.

(٢) الصحاح (سوط).

(٣) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٧٩.

لا زائدةً ولا غيرَ زائدة[١]. وأُجيب بأنها على ذلك تجريدية، نعم يلزمهُ إطلاق المرصاد على الله عزَّ وجلَّ، وفيه شيءٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إلخ متَّصلٌ بما عنده، كأنه قيل: إنه سبحانه لبالمرصاد من أجل الآخرة، فلا يطلبُ عزَّ وجلَّ إلا السَّعيَ لها، فأما الإنسان فلا يهمُّهُ إلا الدنيا ولذَّاتها، فإن نالَ منها شيئاً رضي، وإلا سَخِطَ، وكان اللائقُ أن لا يهمَّهُ إلا ما يطلبه الله عزَّ وجلَّ، ولا يكون حالهُ ذلك.

وقيل: هو متَّصلٌ به متفرِّعٌ عليه على معنى: فالإنسانُ يؤاخَذُ لا محالةَ؛ لأنه بين غِنًى مهلكٍ مُوجبٍ للتكبُّر والافتخار بالدنيا، وبين فَقْرٍ لا يصبرُ عليه، ويكفرُ لأجله بالجَزَع والقول بما لا ينبغي. وهو كما ترى.

﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: عامله معاملةَ مَنْ يبتليه بالغنى واليسار، ليرى هل يشكرُ أم لا.

والفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ تفسيريةٌ، فإنَّ الإكرامَ والتنعيمَ عينُ المراد بالابتلاء، ولَمَّا كان الإكرامُ والتنعيمُ في حُكْم شيءٍ واحدٍ اقتصر على قوله: «أكرمن» في قوله سبحانه: ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ولم يضمَّ إليه: ونعَّمني، وهذه الجملةُ خبرٌ للمبتدأ الذي هو «الإنسان»، والفاء لِمَا في «أمَّا» من معنى الشرط، والظرفُ ـ أعني «إذا» ـ متعلِّقٌ بـ «يقول» وهو على نية التأخير، ولا تمنعُ الفاء من ذلك كما صرَّح به الزمخشريُّ[٢] وغيرُهُ من متقدِّمي النحاة، وتَبِعَهم مَنْ بعدهم كأبي حيان والسمين[٣] والسفاقسي مع جَمْعٍ غفيرٍ من المفسِّرين، وهو كما قال الشهاب: الحقُّ الذي لا محيدَ عنه، وخالفهم في ذلك الرضي ومَنْ تبعه كالبدر الدماميني في «شرح المغني» فقالوا: إنما يجوز تقديمُ ما بعد الفاء عليها إذا كان المقدَّمُ هو الفاصل بين «أما» والفاء؛ لما يتعلَّقُ بتقديمه من الأغراض، فإن كان ثمَّةَ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧٠.

(٢) في الكشاف ٤/ ٢٥١.

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ٤٧٠، والدر المصون ١٠/ ٧٨٧.

فاصلٌ آخر امتنع تقديمُ غيره[١]، فيمتنعُ: أمَّا زيدٌ طعامَك فآكِلٌ، وإن جاز: أمَّا طعامَك فزيدٌ آكِلٌ، وقالوا في ذلك: إنهم لَمَّا التزموا حَذْفَ الشرط، لَزِمَ دخولُ أداته على فاء الجواب، وهو مستكرَهٌ، فدعتِ الضرورةُ للفصل بينهما بشيءٍ مما بعد الفاء، والفاصلُ الواحدُ كافٍ فيه، فيجبُ الاقتصارُ عليه، وزَعَمَ الجلبيُّ مُحَشِّي «المطوَّل»[٢] أنَّ هذا متَّفقٌ عليه، فَرَدَّ به على المفسِّرين إعرابَهم السابق، وقال: إنه خطأٌ، والصوابُ أن يُجعَل الظرفُ متعلِّقاً بمقدَّرٍ وهو المبتدأ في الحقيقة، والتقدير: فأما شأنُ الإنسان إذا.. إلخ، فالظرفُ من تتمة الجزء المفصول به وليس فاصلاً ثانياً كقولك: أما إحسان زيدٍ إلى الفقير فَحَسَنٌ. ويَرِدُ على تقديره أنه لا يصحُّ وقوعُ جملةِ «يقول» خبراً عن الشأن إلا بتعسُّفٍ، كأن يكون الفعلُ بتأويل المصدر وإن لم تكن معه في اللفظ «أن» المصدرية، كما قيل في: تسمع بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ من أن تراه[٣]. وهو فرارٌ من السحاب إلى الميزاب، وذهب أبو البقاء إلى أنَّ «إذا» شرطيةٌ، وقوله تعالى: (فَيَقُولُ) جوابها، والجملةُ الشرطيةُ خبرُ «الإنسان»، ويلزمه حَذْفُ الفاء بدون القول، وقد قيل: إنه ضرورةٌ[٤].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ عامله معاملةَ مَنْ يبتليه ويختبره بالحاجة والفقر ليرى هل يصبر أم لا ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ بتقدير: وأما هو ـ أي: الإنسان ـ إذا ما ابتلاه.. إلخ؛ ليصحَّ التفصيلُ ويتمَّ التوازنُ، وبقيةُ الكلام فيه كما في سابقه.

والظاهرُ أنَّ كلتا الجملتين متضمِّنةٌ لإنكار قول الإنسان الذي تضمَّنته، وإنكارُ قوله إذا ضُيِّقَ عليه رزقه: «ربِّي أهانن»؛ لدلالته على قصور نظره وسوء فكره، حيث حَسِبَ أنَّ تضييقَ الرزق إهانةٌ، مع أنه قد يؤدِّي إلى كرامة الدارين، ولِعَدَمِ كونه

---

(١) جاء في هامش الأصل و(م): قيل: هذا في غير الظرف لتوسعهم فيه فليحفظ.
(٢) هو حسن جلبي بن محمد شاه الرومي الحنفي، بدر الدين المعروف بابن الفناري، المتوفى سنة (٨٨٦هـ). نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي ص ١٠٥.
(٣) يضرب لمن خَبَرُهُ خيرٌ من مرآه. مجمع الأمثال ١/ ١٢٩.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٣٥٨-٣٥٩، وينظر الإملاء ٤/ ٤٦٥.

إهانةً أصلاً لم يقل سبحانه في تفسير الابتلاء: فأهانه وقَدَرَ عليه رزقه، نظير ما قال سبحانه أولاً: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾.

وإنكارُ قوله إذا أُكرِمَ: «ربِّي أكرمني» مع قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ أولاً من حيث إنه أثبتَ إكرامَ الله تعالى له على خلاف ما أثبتَ الله تعالى، وهو قصدُ أنَّ الله تعالى أعطاه ما أعطاه إكراماً له مستحقًّا ومستوجباً قَصْداً جارياً على ما كانوا عليه من افتخارهم وزَعْمهم جلالةَ أقدارهم.

والحاصلُ أنَّ المنكَرَ كونُهُ عن استحقاقٍ لِحَسَبٍ أو نَسَبٍ، وفي «المفصل» ما يدلُّ على أنَّ أصلَ الإكرام مُنكَرٌ، لا كونه عن استحقاقٍ، وإنكارُ أصل الإهانة يَعضدُهُ، ووجهه ما أثبته تعالى من الإكرام أنَّ الله عز وجل أثبتَ الإكرامَ بإيتاء المال والتوسعة، وهو جَعَلَهُ إكراماً كُلِّيًّا مثبتاً للزلفى عنده تعالى، فأنكر أنه ليس من ذلك الإكرام في شيءٍ.

وجُوِّزَ أن يكون الإنكارُ إنكاراً للإهانة فقط، يعني أنه إذا تفضّل عليه بالخير وأُكرم به، اعترفَ بتفضُّل الله تعالى وإكرامه، وإذا لم يتفضَّل عليه سمَّى تَرْكَ التفضُّل هواناً، وليس به، قيل: ويعضده ذِكْرُ الإكرام في قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ وفي الآية مع ما بعدُ شَمَّةٌ من أسلوب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]. ولا يخفى أنَّ الوجه هو الأول.

وقرأ ابن كثير: «أكرمني وأهانني» بإثبات الياء فيهما[١]. ونافعٌ بإثباتها وَصْلاً وحَذْفها وَقْفاً، وخيَّرَ في الوجهين أبو عمرو، وحَذَفَها باقي السبعة فيهما وَصْلاً ووَقْفاً، ومَنْ حَذَفها وَقْفاً سَكَّنَ النون فيه[٢].

وقرأ أبو جعفر وعيسى وخالد والحسن بخلافٍ عنه، وابن عامر: «فَقَدَّرَ» بتشديد الدال للمبالغة[٣].

---

(١) وهي قراءة ابن كثير من رواية البزي عنه. التيسير ص٢٢٣، والنشر ٢/ ٤٠٠-٤٠١، والكلام من البحر ٨/ ٤٧٠.

(٢) البحر ٨/ ٤٧٠.

(٣) النشر ٢/ ٤٠٠ عن ابن عامر وأبي جعفر، والكلام من البحر ٨/ ٤٧٠.

﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ للإنسان عن قوليه المحكيَّين، وتكذيبٌ له فيهما، لا عن الأخير فقط كما في الوجه الأخير، وقد نصَّ الحسنُ على ما قلنا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: لم أَبتله بالغنى لكرامته عليَّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليَّ، بل ذلك لمحض القضاء والقدر.

وقوله سبحانه: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾﴾ إلخ انتقالٌ وترقٍّ من ذَمِّه بالقبيح من القول إلى الأقبح من الفعل، والالتفاتُ إلى الخطاب لتشديد التقريع وتأكيد التشنيع. وقيل: هو بتقدير: قل، فلا التفاتَ، نعم فيه من الإشارة إلى تنقيصهم ما فيه، والجمعُ باعتبار معنى الإنسان؛ إذ المرادُ هو الجنس، أي: بل لكم أفعالٌ وأحوالٌ أشدُّ شرًّا مما ذُكِرَ، وأدلُّ على تهالككم على المال، حيث يكرمكم الله تعالى بكثرة المال، فلا تؤدُّون ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم بالمبرَّة به والإحسان إليه، وفي الحديث: «أحبُّ البيوت إلى الله تعالى بيتٌ فيه يتيمٌ مُكْرَمٌ»[(١)].

وقرأ الحسن ومجاهد وأبو رجاء وقتادة والجحدريُّ وأبو عمرو: «لا يُكرِمُون» بياء الغيبة[(٢)].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بحذف إحدى التاءين من تتحاضون، أي: ولا يحضُّ ويحثُّ بعضُكم بعضاً.

﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ أي: على إطعامه، فالطعام مصدرٌ بمعنى الإطعام كالعَطاء بمعنى الإعطاء. وزعم أبو حيان أنَّ الأَوْلى أن يُرادَ به الشيءُ المطعوم، ويكونُ الكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، أي: على بذل طعام المسكين[(٣)]. والمرادُ بالمسكين ما يعمُّ الفقير.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٤٣٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي إسناده إسحاق بن إبراهيم الحُنَيني، وهو ضعيف. ينظر تهذيب التهذيب ١/ ١١٤، وأسنى المطالب ص ٢٠-٢١.

(٢) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٤٧١.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٧١.

وقرأ عبد الله وعلقمةُ وزيد بن علي وعبد الله بن المبارك والشَّيزَري[١] عن الكسائي كقراءة الجماعة، إلا أنهم ضمُّوا تاءَ «تُحاضُّون» من المحاضة[٢].

وقرأ أبو عمرو ومَنْ سمعتَ الحسنُ ومَنْ معه: «ولا يَحضُّون» بياء الغيبة ولا ألف بعد الحاء، وباقي السبعة بتاء الخطاب كذلك، وكذا الفِعْلان بعدُ[٣].

والفعلُ على القراءتين جُوِّزَ أن يكون متعدِّياً ومفعوله محذوفٌ، فقيل: أنفسهم أو أنفسكم، وقيل: أهليهم أو أهليكم. وقيل: أحداً، وجُوِّزَ ـ وهو الأَولى ـ أن يكون منزَّلاً منزلةَ اللازم للتعميم.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: الميراثَ، وأصله: وُرَاث، فأُبدلت الواو تاءً كما في: تُخَمَة، وتُكَأَة، ونحوهما.

﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: ذا لَمٍّ، أو هو نفسُ اللَّمِّ على المبالغة، واللَّمُّ: الجمعُ، ومنه قول النابغة:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ أيُّ الرجال المهذَّبُ[٤]

والمراد به هنا الجمعُ بين الحلال والحرام، وما يُحمَدُ وما لا يُحمَدُ، ومنه قول الحُطَيئة:

إذا كان[٥] لَمًّا يَتْبَعُ الذَّمّ ربّه ... فلا قدَّسَ الرحمنُ تلك الطواحنا[٦]

يعني: أنكم تجمعون في أَكْلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم، ويُروى أنهم كانوا لا يُورِّثون النساءَ ولا صغارَ الأولاد، فيأكلون نصيبهم ويقولون: لا يأخذ الميراثَ إلا مَنْ يقاتل ويحمي الحَوْزة، هذا وهم يعلمون من شريعة

---

(١) في (م): الشيرزي.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٨٠، والبحر ٨/ ٤٧١.
(٣) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن أبي عمرو، والكلام من البحر ٨/ ٤٧١.
(٤) ديوان النابغة ص١٨. قال البغدادي في الخزانة ٩/ ٤٦٩: يقول: أيُّ الرجال يكون مبرَّأً من العيوب؟ فإن قطعتَ إخوانك بذنب لم يبق لك أخ.
(٥) في هامش الأصل: أي الأكل.
(٦) لم نقف عليه في ديوانه، وهو في الكشاف ٤/ ٢٥٣، والقرطبي ٢٢/ ٢٧٩.

إسماعيل عليه السلام أنهم يَرِثون، فاندفعَ ما قيل: إنَّ السورة مكيةٌ، وآيةُ المواريث مدنية، ولا يُعلَمُ الحِلُّ والحُرْمةُ إلا من الشرع، فإنَّ الحُسْنَ والقُبْحَ العقليين ليسا مذهباً لنا[1].

وقيل: يعني تأكلون ما جَمَعَهُ الميتُ المورِّثُ من حلالٍ وحرامٍ، عالمين بذلك، فتلمُّون في الأكل بين حلاله وحرامه.

وفي «الكشاف»[2]: يجوز أن يذمَّ الوارثَ الذي ظَفِرَ بالمال سَهْلاً مَهْلاً من غير أن يعرق فيه جبينُهُ، فيُسرفُ في إنفاقه، ويأكله أَكْلاً واسعاً، جامعاً بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه ونحوها، كما يفعله الوُرَّاثُ البطَّالون. وتُعقِّبَ بأنه غيرُ مناسبٍ للسياق.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ أي: كثيراً كما قال ابن عباس، وأنشد قولَ أمية:

إنْ تغفرِ اللهمَّ تغفرْ جمّا وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا[3]

والمراد: إنكم تُحبُّونه مع حِرْصٍ وشَرَهٍ.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ لهم عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ إلى آخره، استئنافٌ جيءَ به بطريق الوعيد تعليلاً للرَّدْع. والدَّكُّ قال الخليل: كسرُ الحائطِ والجبلِ ونحوهما، وتكريرُهُ للدلالة على الاستيعاب، فليس الثاني تأكيداً للأول؛ بل ذلك نظيرُ الحال في نحو قولك: جاؤوا رجلاً رجلاً، و: علَّمته الحساب باباً باباً، أي: إذا دُكَّتِ الأرضُ دكًّا متتابعاً حتى انكسرَ وذهب كلُّ ما على وجهها من جبالٍ وأبنيةٍ وقصورٍ وغيرها، حين زُلزلتِ المرَّةَ بعد المرَّة، وصارت هباءً منثوراً.

---

(١) فوقها في الأصل: من كلام القائل.

(٢) ٤/ ٢٥٣.

(٣) ديوان أمية بن أبي الصلت ص١١٤.

وقال المبرِّد: الدَّكُّ: حَطُّ المرتفع بالبَسْطِ والتسوية، واندكَّ سنامُ البعير: إذا انفرشَ في ظهره، وناقةٌ دَكَّاءُ: إذا كانت كذلك، والمعنى عليه: إذا سُوِّيتْ تسويةً بعد تسويةٍ، ولم يبقَ على وجهها شيءٌ حتى صارت كالصخرة الملساء.

وأيًّاما كان فهو على ما قيل عبارةٌ عمَّا عَرَضَ للأرض عند النفخة الثانية.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ قال منذر بن سعيد: معناه: ظهر سبحانه للخلق هنالك، وليس ذلك بمجيءِ نُقْلةٍ، وكذلك مجيءُ الطَّامَّة والصَّاخَّة.

وقيل: الكلامُ على حَذْفِ المضاف للتهويل، أي: وجاء أمرُ ربك وقضاؤه سبحانه.

واختار جَمْعٌ أنه تمثيلٌ لظهور آيات اقتداره تعالى، وتبيُّن آثار قُدْرته عزَّ وجلَّ وسلطانه عزَّ سلطانه، مُثِّلتْ حالُهُ سبحانه في ذلك بحال الملك إذا حَضَرَ بنفسه ظَهَرَ بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصِّه عن بَكْرةِ أبيهم، وأنت تعلمُ ما للسَّلف في المتشابه من الكلام(١).

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: جنسُ الملك، فيشملُ جميع ملائكة السماوات عليهم السلام.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: مُصطفِّين، أو ذوي صفوفٍ، فإنه قيل: ينزل يومَ القيامة ملائكةُ كلِّ سماءٍ، فيصطفُّون صفًّا بعد صفٍّ بحَسَبِ منازلهم ومراتبهم، مُحْدِقين بالجنِّ والإنس. وقيل: يصطفُّون بحَسَبِ أمكنة أمورٍ تتعلَّقُ بهم. وهو قريبٌ مما ذُكِرَ. وروي أنَّ ملائكةَ كلِّ سماءٍ تكونُ صفًّا حول الأرض. فالصفوف سبعةٌ على ما هو الظاهر.

وقال بعض الأفاضل: الظاهرُ أنَّ «المَلَكَ» أعمُّ من ملائكة السماوات وغيرها، وتعريفُهُ للاستغراق، وادَّعى أنَّ اصطفافهم بحَسَبِ مراتبهم اصطفافَ أهل الدنيا في الصلاة. وظاهره أنه اصطفافٌ من غير تحديق، ورأيتُ غيرَ أثرٍ في أنهم يصطفُّون مُحدِقين(٢).

---

(١) ينظر ما سلف ١٦/ ٢٢٧ وما بعدها.

(٢) منها ما أخرجه ابن جرير في التفسير ٢٠/ ٢٧١ عن قتادة والسدي.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَۚ﴾ قيل: هو كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦] على أن يكون مجيئها متجوَّزاً به عن إظهارها.

واختير أنه على حقيقته، فقد أخرج مسلمٌ والترمذيُّ وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه[١] عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بجهنمَ يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يجرُّونها»، وفي روايةٍ بزيادة: «حتى تُنْصَبَ عن يسار العرش، لها تغيُّظٌ وزفيرٌ»[٢].

وجاء في بعض الآثار أنَّ جبريلَ عليه السلام جاء إلى النبيِّ ﷺ فناجاه، ثم قام النبيُّ عليه الصلاة والسلام منكسرَ الطَّرْفِ، فسأله عليٌّ كرم الله تعالى وجهه، فقال ﷺ: «أتاني جبريلُ عليه السلام بهذه الآية: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ الآية» فقال له عليٌّ كرم الله تعالى وجهه: كيف يُجاء بها، فقال رسول الله ﷺ: «تُقاد بسبعين ألفَ زمام، كلُّ زمامٍ يقوده سبعون ألفَ ملك، فبينما هم كذلك إذ شَرَدَتْ عليهم شَرْدَةً انفلتت من أيديهم، فلولا أنهم أدركوها فأخذوها لأحرقت مَنْ في الجمع»[٣]، وفي رواية: «لولا أنَّ الله تعالى حَبَسَها لأحرقت السماوات والأرض»[٤].

وتأويل كلِّ ما ذُكِرَ ونحوه مما ورد وحَمْلُهُ على المجاز لا يدعو إليه إلا استحالةُ الانتقال الذي يقتضيه المجيءُ الحقيقيُّ على جهنم، وهو لَعَمْري غيرُ مستحيلٍ، فيجوز أن تخرجَ وتنتقلَ من محلِّها في المحشر، ثم تعود إليه، والحالُ في ذلك اليوم وراءَ ما تتخيَّلُهُ الأذهان.

---

(١) مسلم (٢٨٤٢)، والترمذي (٢٥٧٣)، وابن جرير ٢٤/ ٣٨٩، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٤٨٦.

(٣) أخرجه ابن وهب في كتاب الأهوال كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٩ عن زيد بن أسلم قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فناجاه...، وفيه: منكس الطرف. بدل: منكسر الطرف. وأخرجه بنحوه الثعلبي في تفسيره ١٠/ ٢٠١، والواحدي في الوسيط ٤/ ٤٥٨-٤٥٩ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن مردويه من حديث علي رضي الله عنه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٤٩.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ من «إذا دُكَّت»، وظاهر كلام الزمخشريِّ أنَّ العامل فيه هو العاملُ نفسُهُ في المبدل منه، أعني: قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾(١)، وهو قولٌ قد نُسِبَ إلى سيبويه، وفي «البحر»: المشهور خلافه، وهو أنَّ البدلَ على نية تكرار العامل(٢). والظاهر عندي الأولُ.

و«يتذكَّر» من الذِّكر ضِدِّ النسيان، أي: يتذكَّرُ الإنسان ما فرَّط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه، أو بإحضار الله تعالى إياه في ذهنه وإخطاره له، وإن لم يشاهد بعدُ أثراً، أو بمعاينة عينه، بناءً على أنَّ الأعمال تتجسَّمُ في النشأة الآخرة، فتبرزُ بما يناسبها من الصُّوَر حُسْناً وقُبْحاً. أو من التذكُّر بمعنى الاتِّعاظ، أي: يتَّعظُ بما يرى من آثار قدرة الله عزَّ وجلَّ وعظيم عظمته تعالى شأنه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ اعتراضٌ جيءَ به لتحقيق أنه ليس بتذكُّرٍ حقيقةً؛ لعرائه عن الجدوى لعدم وقوعه في أوانه، و«أنَّى» خبرٌ مقدَّمٌ و«الذكرى» مبتدأٌ، و«له» متعلِّقٌ بما تعلَّقَ به الخبرُ، أي: ومن أين تكونُ له الذكرى وقد فات أوانها.

وقيل: هناك مضافٌ محذوفٌ، أي: وأنَّى له منفعةُ الذكرى، ولا بدَّ من تقديره لئلَّا يكونَ تناقضٌ. وقد علمتَ أنَّ هذا يتحقَّقُ بما قُرِّرَ أولاً، على أنه إذا جُعِلَ اختصاصُ اللام مقصوراً على النافع، استقامَ من غير تقدير، ويكونُ إنكار أنْ تكونَ الذكرى له لا عليه، وأما كونه حكايةً لما كان عليه في الدنيا من عدم الاعتبار والاتعاظ، فليس بشيءٍ.

واستُدِلَّ بالآية على أنَّ التوبةَ من حيث هي توبةٌ غيرُ واجبةِ القَبول عقلاً كما زعم المعتزلة بناءً على وجوب الأصلح عندهم. وقيل في توجيهه: إنه لو وَجَبَ قبولها لوجب قبولُ هذا التذكُّر، فإنه توبةٌ؛ إذ هي كما بُيِّنَ في محلِّه: الندمُ على المعصية من حيث هي معصيةٌ، والعزمُ على أن لا يعودَ لها إذا قَدر عليها. ولم يعتبرْ أحدٌ في

(١) الكشاف ٤/ ٢٥٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٧١.

تعريفها كونَها في الدنيا، وإن كانت النافعةُ منها لا تكون إلا فيها، وهذا التذكُّرُ هو عينُ الندم المذكور، وقد صرَّح الضحاك ـ كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم(١) ـ بأنه توبةٌ، ولم تُقْبَلْ لعدم ترتُّب المنفعة عليه التي هي من لوازم القبول.

واعتُرض بأنَّ المعتزلةَ إنما يقولون بوجوب قبولها بشرط عدم رَفْعِ التكاليف.

وقيل: إنَّ تذكُّرَهُ ليس من التوبة في شيء، فإنه عالمٌ بأنها إنما تكون في الدنيا كما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾. ويُعلَمُ ما فيه مما تقدَّمَ من توجيه الاستدلال، فلا تغفل.

وهذه الجملةُ بدلُ اشتمال من «يتذكَّر»، أو استئنافٌ وَقَعَ جواباً عن سؤالٍ نشأ منه، كأنه قيل: ماذا يقول عند تذكُّره؟ فقيل: يقول: يا ليتني.. إلخ، واللام للتعليل، والمراد بحياته: حياتُه في الآخرة، ومفعولُ «قدَّمتُ» محذوفٌ، فكأنه قال: يا ليتني قدَّمتُ لأَجْلِ حياتي هذه أعمالاً صالحةً أنتفعُ بها فيها.

وقيل: اللام للتعليل، إلا أنَّ المعنى: يا ليتني قدَّمتُ أعمالاً صالحةً لأجل أنْ أحيا حياةً نافعةً، وقال ذلك لأنه لا يموتُ ولا يحيا حينئذٍ. وهو كما ترى.

ويجوز أن تكونَ اللامُ توقيتيةً مثلُها في نحو: كتبته لخمسَ عشرةَ ليلةً مَضَين من المحرَّم. و: جئتُ لطلوع الشمس، ويكون المراد بحياته حياتَه في الدنيا، أي: يا ليتني قدَّمتُ وعملتُ أعمالاً صالحةً وقتَ حياتي في الدنيا، لأنتفع بها اليومَ.

وليس في هذا التمنِّي شائبةُ دلالةٍ على استقلال العبد بفعله، وإنما يدلُّ على اعتقاد كونه متمكِّناً من تقديم الأعمال الصالحة، وأما أنَّ ذلك بمحض قدرته تعالى أو بخَلْق الله عزَّ وجلَّ عند صَرْفِ قدرته الكاسبة إليه فكلّا، وزَعَمَه الزمخشريُّ(٢) دليلاً على الاستقلال، وردَّ به على المجبِّرة وهم عنده غيرُ المعتزلة؛ زَعْماً منه المنافاةَ بين التمنِّي والحَجْر، وقد علمتَ أنه لا دلالة على ذلك، وفي «الكشف» أنَّ

(١) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.
(٢) في الكشاف ٤/ ٢٥٣.

التمنّي قد يقعُ على المستحيل، على أنه حالتئذٍ كالغريق، هذا وأهل الحق لا يقولون بسَلْبِ الاختيار بالكلية.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ يكونُ ما ذُكِرَ من الأحوال والأقوال.

﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ الهاء إما لله عزَّ وجلَّ، أي: لا يتولَّى عذاب الله تعالى ووثاقه سبحانه أحدٌ سواه عزَّ وجلَّ، وكأنه قيل: لا يفعلُ عذاب الله تعالى ووثاقه ولا يباشرهما أحدٌ، وذلك لأنَّ الفعل في ضمن كلِّ فعلٍ خاصّ، واستعمل ذلك استعمالاً شائعاً في مثل:

وقد حِيلَ بين العِير والنَّزَوان[١]

و﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية: ٣٢] فالعذاب مفعولٌ به، وكذا الوثاق، وفيه تعظيمُ عذاب الله تعالى ووثاقه سبحانه لهذا الإنسان الذي شرح من أحواله ما شرح على طريق الكناية، فما ادعاه ابن الحاجب من عدم قوة المعنى على تقدير عَوْدِ الضمير إليه تعالى بناءً على فوات التعظيم الذي يقتضيه السياق، فللغفول عن نكتةِ الكناية.

وإما للإنسان الموصوف، والإضافةُ إلى المفعول، أي: لا يُعذِّبُ ولا يُوثِقُ أحدٌ من الزبانية أحداً من أهل النار مثل ما يُعذِّبونه ويُوثقونه، كأنه أشدّهم عذاباً ووثاقاً؛ لأنه أشدُّهم سيئات أفعال وقبائح أحوال. وهو وجهٌ حسنٌ، بل هو أرجحُ من الأول على ما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وقرأ ابن سيرين وابن أبي إسحاق وأبو حيوة وابن أبي عبلة وأبو بحرية وسلام والكسائي ويعقوب وسهل وخارجة عن أبي عمرو: «لا يُعذَّبُ ولا يُوثَقُ» بالبناء للمفعول[٢]، فالهاء في «عذابه» و«وثاقه» للإنسان الموصوف، أي: لا يُعذَّبُ أحدٌ مثلَ عذابه، ولا يُوثَقُ بالسلاسل والأغلال مثلَ وثاقه؛ لتناهيه في كُفْره وشقاقه، ونَصْبُ «العذاب» على المصدرية واقعٌ موقعَ التعذيب، إما لأنه بمعناه في الأصل

(١) عجز بيت لصخر بن عمرو، وهو في الشعر والشعراء ١/ ٣٤٥، والكامل للمبرد ٣/ ١٤٢٦، والخزانة ١/ ٤٣٦، وصدره: أهمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه.

(٢) التيسير ص٢٢٢، والنشر ٢/ ٤٠٠ عن الكسائي ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ٤٧٢.

كالسلام بمعنى التسليم، ثم نُقِلَ إلى ما يُعذَّبُ به، أو لأنه وُضِعَ موضعه كما يُوضَعُ العطاءُ موضعَ الإعطاء، وكذلك الوثاق.

وجُوِّزَ أن يكون المعنى: لا يحملُ عذابَ الإنسان أحدٌ، ولا يُوثَقُ وثاقه أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] والعذاب عليه جارٍ على المتعارف، والنصبُ على تضمين التعذيب معنى التحميل. والأول أنسبُ بمقام التغليظ على هذا الإنسان المفرِّط أوانَ التمكُّن، والوجهُ الثاني للقراءة الأولى مطابقٌ لهذا كما لا يخفى، والمراد من أنه لا يُعذِّبُ أحدٌ مثلَ عذابه أنه لا يُعذِّبُ أحدٌ من جنسه ـ كالعصاة ـ كذلك، فلا يلزمُ كونه أشدَّ عذاباً من إبليس ومَنْ في طبقته.

ثم إنَّ الظاهر أنَّ المرادَ جنسُ المتَّصف بما ذُكِرَ. وقيل: المراد به أميَّةُ بن خَلَف، وقيل: أُبيُّ بن خَلَف، وهو خلافُ الظاهر، وإن قيل: إنَّ الآيَةَ نزلتْ فيمَنْ ذُكِرَ.

وأما القول بأنَّ هذا المعذَّب الموثق إبليس عليه اللعنة، فليس بشيءٍ؛ إذ لا يقال له إنسانٌ، وكونُ الضمير له وإن لم يسبق له ذِكْرٌ لا للإنسان المذكور في قوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ) إلخ مما لا ينبغي أن يُلتفتَ إليه.

وقرأ أبو جعفر وشيبة بخلاف عنه: «وِثاقه» بكسر الواو[(١)].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ إلخ حكايةٌ لأحوال مَن اطمأنَّ بذِكْر الله تعالى وطاعته عزَّ وجلَّ إثرَ حكاية من اطمأنَّ بالدنيا وسَكَنَ إليها. وذُكِرَ أنه على إرادة القول، أي: يقول الله تعالى: يا أيتها النفس.. إلخ، إما بالذات كما كلَّم سبحانه موسى عليه السلام، أو على لسان الملك.

واستُظهرَ أنَّ ذلك القول عند تمام الحساب، وليُنظر التفاوت ما بين ذلك الإنسان وهذه النفس، ذاك يقول: يا ليتني قدَّمتُ لحياتي، وهذه يقول الله تعالى

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧٢.

لها: يا أيتها النفس المطمئنَّة.. إلخ، وكأنه للإيذان بغاية التباين لم يذكرِ القول، وتُعطَف الجملةُ على الجملة السابقة.

والنفس: قيل بمعنى الذات، ووُصِفتْ بالاطمئنان بذلك لأنها تترقَّى[١] بقوَّتها العاقلة في معارج الأسباب والمسبَّبات إلى المبدأ المؤثِّر بالذات جلَّت صفاته وأسماؤه، فتضطربُ وتقلقُ قبل الوصول إلى معرفته تعالى، فإذا وصلت إليه عزَّ وجلَّ اطمأنت واستغنت به سبحانه عن وجودها وسائر شؤونها، ولم تلتفتْ إلى ما سواه جلَّ وعلا بالكلية.

وقيل: هي النفسُ المؤمنةُ المطمئنَّةُ إلى الحقِّ، الواصلةُ إلى ثلج اليقين وبرودته، بحيث لا يُخالطها شكٌّ ما، ولا يمازجها سخونةُ اضطراب القلب في الحق أصلاً. وهو وجهٌ حَسَنٌ، والارتباطُ عليه أنَّ هذه النفس هي المتَّعظةُ الذاكرةُ، على خلاف الإنسان الموصوف فيما قبل، فإنَّ التذكُّرَ على قدر قوة اليقين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]؟.

وقيل: هي الآمنةُ التي لا يستفزُّها خوفٌ ولا حزنٌ يوم القيامة، أعني: النفس المؤمنة اليومَ، المتوفَّاة على الإيمان. وأُيِّدَ بقراءة أُبيٍّ: «يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة»[٢]، وكأنه لأنَّ الوصفين يعتبر تناسبهما في الأكثر، وهي على هذا أيضاً تُقابِلُ السابقَ، وهو المتحسرُ المتحزِّنُ.

وقرأ زيد بن علي: «يا أيها» بغير تاء، وذكر صاحب «البديع» أنَّ «أيًّا» قد تُذكَّرُ مع المنادى المؤنَّث، قيل: ولذلك وجهٌ من القياس، وذلك أنها كما لم تُثَنَّ ولم تُجْمَعْ في نداء المثنَّى والمجموع، فكذلك لم تؤنَّثْ في نداء المؤنَّثِ[٣]. واعتبارُ النفس هاهنا مذكرةً ثم مؤنَّثةً مما لا تلتفت إليه النفس المطمئنة.

﴿ٱرْجِعِىٓ﴾ أي: من حيث حُوسبتِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى محلِّ عنايته تعالى وموقف كرامته عزَّ وجلَّ لك أولاً، وهذا لأنَّ للسعداء قبلَ الحساب كما يُفهَمُ من

---

(١) في (م): لترقى، بدل: تترقى.
(٢) القراءات الشاذة ص١٧٣.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٧٢.

الأخبار موقفاً في المحشر مخصوصاً يكرمهم الله تعالى به، لا يجدون فيه ما يجده غيرهم في مواقفهم من النَّصَب، ومنه يُنادى الواحدُ بعد الواحد للحساب، فمتى كان هذا القولُ عند تمام الحساب اقتضى أن يكون المعنى ما ذكر.

ويجوز أن يكون المعنى: ارجعي بتخلية القلب عن الأعمال، والالتفاتِ إليها والاهتمامِ بأمرها، أَتُقْبَلُ أم لا؟ أي: إلى ملاحظة ربك والانقطاع إليه، وترك الالتفات إلى ما سواه عزَّ وجلَّ كما كنت أولاً، كأنَّ النفسَ المطمئنَّةَ لَمَّا دعيت للحساب شُغِلَ فكرُها ـ وإن كانت مطمئنةً ـ بمقتضى الطبيعة وحالِ اليوم بأمر الحساب وما ينتهي إليه، وأنه ماذا يكون حالُ أعمالها أَتُقْبَلُ أم لا؟ فلما تمَّ حسابُها وقُبلتْ أعمالها قيل لها ذلك؛ تطييباً لقلبها بأنَّ الأمرَ قد انتهى وفُرِغ منه، وليس بعدُ إلا كلُّ خيرٍ، ونداؤها بعنوان الاطمئنان لتذكيرها بما يقتضي الرجوع، نظير قولك لشجاعٍ مشهور بالشجاعة أَحْجَمَ في بعض المواقف: يا أيها الشجاع أَقدِمْ ولا تُحجِمْ. والظاهر أنه على الأول لا يناسبها.

ولا يخفى ما في قوله سبحانه: (إِلَىٰ رَبِّكِ) على الوجهين من مزيد اللُّطف بها، ولذا لم يقل نحو: ارجعي إلى الله تعالى، أو: إليَّ.

﴿رَاضِيَةً﴾ أي: بما تُؤْتَيْنَهُ من النِّعَم التي لا تتناهى. وقد يقال: راضيةً بما نلتيه من خِفَّة الحساب وقبول الأعمال. وليس بذاك.

﴿مَّرْضِيَّةً﴾ أي: عند الله عزَّ وجلَّ.

وقيل: المراد: راضيةً عن ربك، مرضيةً عنده. وزُعِمَ أنه الأظهر. واعترض بأنه غيرُ مناسبٍ للسياق، وفيه نظرٌ.

والوصفان منصوبان على الحال، والظاهر أنَّ الحالَ الأولى مقدَّرةٌ، وقيل: مقارِنةٌ، وذِكْرُ الحال الثانية من باب الترقِّي، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(1) [التوبة: ٧٢].

(١) جاء في هامش الأصل: وما ألطف ما قيل:

إذا كنت عني يا منى القلب راضياً ... أرى كلّ من في الكون لي يَتَبسَّم

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩﴾ في زمرة عبادي الصالحين المخلصين لي، وانتظمي في سلكهم، وكوني في جملتهم.

﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ عَطْفٌ على الجملة قبلها، داخلةٌ معها في حَيِّز الفاء المفيدة لكون ما بعدها عقيبَ ما قبلها من غير تراخٍ.

وكأنَّ الأمرَ بالدخول في جملة عباد الله تعالى الصالحين إشارةٌ إلى السعادة الروحانية؛ لكمال استئناس النفس بالجليس الصالح، والأمرَ بدخول الجنة إشارةٌ إلى السعادة الجسمانية، ولفَضْلِ الأولى على الثانية قُدِّمَ الأمرُ الأول، وجيء بالثاني على وجه التتميم. ونكتةُ الالتفات فيهما ظاهرةٌ بأدنى التفات.

وتعدِّي الدخول أولاً بـ «في» وثانياً بدونها، قال أبو حيان: لأنَّ المدخولَ فيه إن كان غير ظرف حقيقيٍّ تعدَّى إليه في الاستعمال بـ «في»؛ تقول: دخلتُ في الأمر، ودخلتُ في غمار الناس، وإذا كان ظَرْفاً حقيقيًّا تعدَّى إليه في الغالب بغير وساطتها[1]. فلا تغفل.

وقيل: المراد: ارجعي إلى موعد ربك، واستُظهر أنَّ المرادَ بموعده تعالى على تقدير كون القول المذكور بعد تمام الحساب: ما وعده سبحانه من الجنة، والكونِ مع عباده تعالى الصالحين، والفاءُ تفسيريةٌ.

واستشكل عليه الأمر بالرجوع؛ إذ يقتضي أن تكونَ الجنةُ مقرًّا للنفس قبل ذلك.

وأُجيب بتحقُّقِ هذا المقتضى بناءً على وجودها بالقوة في ظهر آدم عليه السلام حين كان في الجنة، وقد قيل نحوُ هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] على ما روي عن أمير المؤمنين عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وعن ابن عباس رضي الله عنهما، من أنَّ المراد بالمعاد الجنة دون مكة.

وأنت تعلم أنَّ هذا على ما فيه لا يتمُّ إلا على القول بأنَّ جنةَ آدم عليه السلام هي الجنةُ التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة، لا جنةٌ أخرى كانت في الأرض،

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٧٢.

والخلافُ في ذلك قويٌّ كما لا يخفى على مَنْ راجع كتاب «مفتاح السعادة»[1] للعلامة ابن القيم، واطَّلع على أدلة الطرفين.

وقيل: المراد: ارجعي إلى أمر ربك. واستُظهر أنَّ المرادَ بالأمر على ذلك التقدير واحدُ الأمور، ويُفسَّرُ بمعاملة الله تعالى إياها بما ليس فيه ما يشغل بالها، أو بتمييزها بموقفٍ كريمٍ، أو بنحو ذلك مما يتحقَّقُ معه ما يقتضيه ظاهر الرجوع.

وقيل: المراد: ارجعي إلى كرامة ربك، ويُرادُ جنسُ كرامته سبحانه، والرجوعُ إليه باعتبار أنها كانت بعد الموت في البرزخ، أو بعد البعث وقبل الحساب في نوعٍ منه، والفاءُ عليه قيل: تفسيريةٌ أيضاً.

وعن عكرمة والضحاك أنَّ ذلك القول عند البعث؛ فقيل: النفس بمعنى الذات أيضاً، والمراد بالرَّبِّ هو الله عزَّ وجلَّ، والكلامُ على حَذْفِ مضافٍ، ولا يُقدَّرُ محلُّ كرامته تعالى مراداً به الموقفُ الخاصُّ على ما سمعت؛ لأنه إنما يكون لها بعد.

وقيل: النفس بمعنى الروح، والمراد بالرَّبِّ الصاحب، وفُسِّر بالجسد، وباقي الآية على حاله، أي: ارجعي إلى جسدك كما كنتِ في الدنيا، فادخلي بعد الرجوع إليه في جملة عبادي، وادخلي دارَ ثوابي.

وقيل: المراد بالنفس والربّ ما ذُكِرَ، وقوله تعالى: ﴿فِي عِبَٰدِي﴾ على حَذْفِ مضافٍ، أي: فادخلي في أجساد عبادي. وجاء هذا في روايةٍ عن ابن عباس وابن جبير، ولا يضرُّ الإفرادُ أولاً والجمعُ ثانياً؛ لأنَّ المعنى على الجنس.

وقال ابن زيد وجماعةٌ: إنَّ ذلك القول عند الموت، وأُيِّدَ بما أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في «الحلية» عن ابن جبير قال: قُرِئتْ عند النبيِّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآية فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ هذا لَحَسَنٌ. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّ الملك سيقولها لك عند الموت»[2].

---

(١) ص١٢ وما بعدها.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٣٩٦، والحلية ٤/ ٢٨٣. والكلام من الدر المنثور ٦/ ٣٥٠. وهذا مرسل حسن كما قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

وجاء نحو هذا من رواية الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول»[(١)] من طريق ثابت بن عجلان عن سليم بن عامر عن الصديق ﷺ.

والنفس عليه بمعنى الروح، والمعنى على ما قيل: ارجعي بالموت إلى عالم قُدْسِ ربك، راضيةً بما تؤتَيْنَ من النعيم، أو راضيةً عن ربك، مرضيَّةً عنده تعالى، فادخلي في زمرة عبادي المقرَّبين سَكَنَةِ حظائر القدس، وادخلي جنتي التي أعددتها لذوي النفوس المطمئنَّة، وهذان الدخولان يعقبان الرجوع، إلا أنَّ الدخولَ الأولَ يعقبه بلا تراخٍ قبل يوم القيامة، والثاني يعقبه بتراخٍ لأنه يوم القيامة إن أُريد بدخول الجنة دخولها على وجه الخلود، إلا أنَّ الأمر لتحقُّقه يجوز تعقيبه بالفاء.

وجُوِّزَ أن يكون تعقيبُ الأمرين على هذا النمط إن أُريد بالدخول في عباده تعالى انتظامها في سلك العباد الصالحين المخلصين من جنسها، ويجوز على إرادة هذا التعقيب أن يُرادَ: فادخلي في أجساد عبادي.

وجُوِّزَ أن يكون تعقيبُ الأمرين بلا تراخٍ إن أُريد بالدخول في العباد الدخول في زمرة المقربين من سَكَنَةِ حظائر القدس، وبالدخول في الجنة الدخول لا على وجه الخلود، بل لنوعٍ من التنعُّم إلى أن تقوم الساعة، ففي الحديث: «إنَّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور في الجنة»[(٢)]، وفي بعض الآثار: «إذا مات المؤمن أعطي نصفَ الجنة»[(٣)] أي: نصفَ جنَّته التي وُعِدَ دخولها يوم القيامة، وذُكِرَ في وجه إدخالها مع الأرواح القدسية أنها[(٤)] كالمرايا المصقولة، فإذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ تعاكست أشعةُ أنوار المعارف، فيظهرُ لكلٍّ منها ما يُكمِّلها، فيكونُ سبباً لتكامل[(٥)] السعادات، وتعاظم الدرجات، وهو عندي كلامٌ خِطابيٌّ.

---

(١) ص١٩ دون ذكر الإسناد.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٥٧٧٨)، والنسائي ٤/١٠٨، وابن ماجه (١٤٤٩) من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) قوله: أنها، ليس في (م).

(٥) قبلها في (م): أنها.

وعن بعض السلف ما يُؤيِّدُ بعضَ هذه الأوجه، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح أنه قال في الآية: (ارْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ) هذا عند الموت، ورجوعُها إلى ربِّها خروجها من الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قيل لها: ادخلي في عبادي، وادخلي جنتي[١].

وقيل: إنَّ هذا القول بعد الموت وقبل القيامة، والمراد برجوعها إلى ربها رجوعُها إلى جسدها لسؤال الملكين، أخرج ابن المنذر[٢] عن محمد بن كعب القرظي أنه قال في الآية: إنَّ المؤمنَ إذا مات أُريَ منزله من الجنة، فيقول تبارك وتعالى: يا أيتها النفس المطمئنة عندي، ارجعي إلى جسدك الذي خرجتِ منه، راضيةً بما رأيتِ من ثوابي، مرضيًّا عنك، حتى يسألك منكرٌ ونكيرٌ.

وقيل: إنه في مواطنَ ثلاثة، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه قال في الآية: بُشِّرتْ بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع[٣]. وتُفسَّرُ عليه بما ينطبق على الجميع.

وقيل: يجوز أن يكون ذلك في سائر أوقات النفس في حياتها الدنيا، والمراد بالأمر بالرجوع إلى الرَّبِّ: الأمرُ بالرجوع إليه تعالى في كلِّ أمرٍ من الأمور، والمرادُ بالأمر بالدخول في العباد: الأمرُ بالدخول في زمرة العباد الخُلَّص، الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، بالإكثار من العمل الصالح، وبالأمر بالدخول في الجنة: الأمرُ بالدخول فيها بالقوة القريبة، فكأنه سبحانه بعد أن بالغ جلَّ وعلا في سوء حال الأمَّارة ووعيدها، خاطَبَ المطمئنَّة بذاك، وأَرشدَها سبحانه إلى ما فيه صلاحُها ونجاتُها.

ولا يخفى ما فيه، فلا ينبغي أن يُعَدَّ وجهاً.

وأيًّاما كان من الأَوْجُه فالظاهر العموم فيها وإن أخرج ابن أبي حاتم من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه حين اشترى

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٥١، وهو في تفسير الطبري ٢٤/ ٢٩٦.
(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ٣٥١.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٥١.

بئر رُومة، وجعلها سقايةً للناس[١].

وقيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب.

وقيل: نزلت في خُبيب بن عدي الذي صَلَبَهُ أهلُ مكة، وجعلوا وجهه إلى المدينة، فقال: اللهم إن كان لي عندك خيرٌ، فحوِّلْ وجهي نحو قبلتك، فحوَّل الله تعالى وجهه نحوها، فلم يستطعْ أحدٌ أن يُحوِّله بعدُ[٢].

فتفسير النفس المذكورة بأحد هؤلاء المذكورين كما نُقِلَ عن بعضٍ من باب التمثيل، وأنَّ صورةَ السبب قطعيةُ الدخول، وينبغي أن يُحمَلَ قولُ ابن عباس في تلك النفس كما أخرجه عنه ابن مردويه: هو النبيُّ ﷺ[٣]، على نحو ذلك.

وأشعرت الآية على بعض أوجهها بأنَّ الأرواحَ مخلوقةٌ قبلَ الأبدان، ومقرُّها إذ ذاك في عالم الملكوت، والخلافُ في المسألة شهيرٌ، وجمهورُ المتكلِّمين على أنها مخلوقةٌ عند استعداد الأبدان لها، وكذا أفلاطون وأصحابه.

وقرأ ابن عباس وعكرمة والضحاك ومجاهد وأبو جعفر وأبو صالح وأبو شيخ واليماني: «في عبدي» على الإفراد[٤]، واستُظهر أنَّ المراد الجنسُ كما في «النفس».

وللسادة الصوفية قُدِّستْ نفوسُهم كلامٌ طويلٌ في تقسيم مراتب النفس، وقالوا: إنَّ الآيةَ متضمِّنةٌ لمراتبَ ثلاثٍ منها: المطمئنَّةُ والراضيةُ والمرضيةُ، وفسَّروا كلًّا بما فسَّروه، فمَنْ أراده فليرجع إليه في كتبهم، وأنا أقول كما علَّم رسول الله ﷺ بعض الصحابة على ما أخرج الطبراني وابن عساكر[٥] عن أبي أُمامة رضي الله عنه: «اللهم إني أسألك نفساً مطمئنةً تؤمنُ بلقائك، وترضى بقضائك، وتَقْنَعُ بعطائك».

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٥٠، وجويبر متروك، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

(٢) الكشاف ٤/ ٢٥٤، والبحر ٨/ ٤٧٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٥٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٧٣، والمحتسب ٢/ ٣٦٠، والبحر ٨/ ٤٧٢، وأبو شيخ، هو الهُنائي البصري، قيل: اسمه حيوان ـ بالمهملة أو المعجمة ـ بن خالد. التقريب ص ٥٧١.

(٥) المعجم الكبير (٧٤٩٠)، وتاريخ ابن عساكر ٣٥/ ٨١.